جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

شواهد أبي تمام بين الآمدي ومخالفيه في ميزان النقد

إعداد

د/ محمود ياسين عوض سيد شناوي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالقاهرة

(العدد الثامن والثلاثون)
(الإصدار الأول .. فبراير)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

شواهد أبي تمام بين الآمدي ومخالفيه في ميزان النقد.

محمود ياسين عوض سيد شناوي

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: mhahoh.25@azhar.edu.eg

الملخص:

من المعلوم أن أبا تمام واحد من الشعراء الذين شغلوا النقاد قديما وحديثا، واختلفت الآراء حوله؛ فمنهم من قدم شعره ونافح عنه وإن كان معيبا، ومنهم من تحامل عليه وذمه، وإن كان سديدا، ثم يبقى الإنصاف طريق كثير من علمائنا السابقين، فتتبعوا شعره؛ فأشادوا بحسنه، وبيّنوا عيبه وتقصيره، ويعد الآمدي أبرز من تتبع شعر أبي تمام؛ حيث ذكر كثيرا من شعره؛ في سياق الموازنة بينه وبين البحتري، فبين للمعارضين حسنه، وكشف للمتعصبين له عيبه؛ في إطار أظهر تحامله على أبي تمام، فكانت هذه الدراسة معنية بالشواهد التي عابها الآمدي؛ من جهة اللفظ أو المعنى، أو الاستعارات، أو الابتداءات القبيحة، وغير ذلك مما بينته الدراسة، وكان الباحث مهتما بالشواهد التي خالف فيها الآمديُّ أهلَ العلم؛ ما بين قبح واستحسان، دون التعرض لما اتفق معهم فيها؛ إذ إنها من الكثرة بمكان، ومن ثم فإن المشكلة تكمن فيما اختلفوا فيه من الشواهد، مما يفتقر الأمر معه إلى دراسة تحقق هذا الخلاف، وتكشف عن الراجح فيه، من خلال الأدلة والبراهين المؤيدة لذلك؛ لبيان الرأي الأمثل فيها.

الكلمات المفتاحية: أبو تمام، الآمدي، اللفظ، المعنى، الاستعارة، الابتداءات.

Shawahid Abu Tamam between Al-Amidi and violators in the balance of literary criticism

Mahmoud Yassin Awad Sayed Shenawy
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Cairo, Al-Azhar University, Egypt.
Email: mhahoh.25@azhar.edu.eg

Abstract:
Praise be to Allah, the Lord of the Worlds, and peace and blessings be upon the most eloquent ofcreation, Prophet Muhammad, It is known that Abu Tammam is one of the poets who have occupied the attention of critics, bothancient and modern. Opinions about him have differed; some have praised his poetry and defendedit, even when it was flawed, while others have been biased against him and criticized it, even whentheir criticisms were sound. However, fairness has remained the path of many of our earlier scholars, who have studied his poetry, praising its beauty and pointing out its flaws and shortcomings, Al-Amidi is considered the most prominent figure who has studied Abu Tammam's poetry. Hementioned many of his poems in the context of comparing him to Al-Buhturi. Thus, he showed thebeauty of his poetry to his opponents and revealed its flaws to his zealous supporters, within aframework that highlighted Al-Amidi's bias against Abu Tammam. This study, therefore, focused on the verses that Al-Amidi criticized, whether in terms of their words, meanings, metaphors, orinelegant beginnings, and other aspects that the study has clarified,The researcher was interested in the verses that Al-Amidi criticized but which other scholars foundto be good. The researcher followed the opinions of both groups and studied them comprehensivelyin light of their context and the rules of the language, in order to arrive at the optimal opinionregarding them. As for the verses that all scholars agreed were poor, there is no need to discuss them, as there is nothing new or beneficial in studying them, And our final supplication is that all praise isdue to God, the Lord of the Worlds.

Keywords: Abu Tammam, Al-Amidi, Word, Meaning, Metaphor, Beginnings.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد؛ سيدنا محمد ـ ﷺ ـ وعلى آله، وأصحابه، ومن سلك طريقهم بإحسان إلى يوم الدين ...وبعد.

فإن مما كرّم الله به العرب أن جعلهم أفصح الناس لسانا، وأعلاهم بيانا، وزادهم شرفا وكرما بأن أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وكان الشعر طريقا من طرق فهم القرآن؛ فأخذ أهل العلم يفسرونه ويستشهدون عليه بما ورد في لغتهم شعرا ونثرا؛ من هنا اهتم السابقون بدراسة الشعر، وجعلوا ذلك مما يتقربون به إلى ربهم، فأقبلوا عليه جمعا، وحفظا، ودراسة.

ثم إنه لم تعرف البشرية قوما شُغِلوا بكلام سابقيهم كما شُغل المسلمون، فلم يتركوا بابا من أبواب دراسة الشعر إلا طرقوه، فأخرجوا إلينا من العلم ما يعجز القلم عن وصفه.

وهذه الدراسة تمضي في هذا الجانب الذي عُنِيَ بمناقشة السابقين في كلامهم؛ حيث توجهت إلى علم من أعلام النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري؛ الحسن بن بشر الآمدي؛ في سفره الموسوم بـ" الموازنة بين أبي تمام والبحتري"، الذي لا يخفى ذكره على أحد، وهو من أجلّ كتب الآمدى، تعرض فيه للموازنة بين أبي تمام والبحتري، فتتبع مواضع الحسن والقبح في كلامهما، ثم أخذ يوازن بينهما؛ تمهيدا لتفضيل أحدهما، والمتأمل كتاب" الموزانة" يجد مؤلفه حمل حملة شعواء على أبي تمام؛ حيث يراه متكلفا، مخالفا للسابقين في كثير مما تعارفوا عليه في الشعر، فبيّن عوار كلامه، في حين أنه لم يعب على البحتري إلا شواهد قليله، فقد كان أبو عبادة عنده من المطبوعين، فلم يأخذ عليه ما أخذ على الطائي.

ولذا فإن هذه الدراسة معنية بشواهد أبي تمام، والتي خالف فيها الآمديُّ أهلَ العلم؛ ما بين قبح واستحسان، دون التعرض لما اتفق معهم فيها؛ إذ إنها

من الكثرة بمكان، ومن ثم فإن المشكلة تكمن فيما اختلفوا فيه من الشواهد، مما يفتقر الأمر معه إلى دراسة تحقق هذا الخلاف، وتكشف عن الراجح فيه، من خلال الأدلة والبراهين المؤيدة لذلك؛ لبيان الرأي الأمثل فيها.

هذا وقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وثبت للمصادر، وفهرس للموضوعات؛ ففي المقدمة تحدثت عن أهمية الموضوع، ومنهجه، وخطته، وفي التمهيد عرّفت بأبي تمام والآمدي، ثم الإشارة إلى الدراسات السابقة، وقد جاءت مباحثه على النحو الآتي:

المبحث الأول: شواهد الخطأ في اللفظ والمعنى.

المبحث الثاني: الاستعارات القبيحة.

المبحث الثالث: الابتداءات القبيحة.

المبحث الرابع: ما استحسنه الآمدي وذمه غيره.

والخاتمة ذكرت فيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أذكر الشاهد، ورأي الآمدي فيه، ثم أُبين ما قاله أهل العلم؛ ما بين مؤيد ومخالف؛ لبيان الراجح في ضوء الأدلة والبراهين، كما اقتضت طبيعة البحث أن أجمع بين المنهج المقارن في الموازنة بين الأقوال، وبين المنهج التحليلي؛ لإبراز مواطن الحسن أوالقبح في قول الشاعر.

وبعد ... فليس معنى أن الصواب عند أحدهم دون الآخر، أن الآخر أخطأ في الحكم والنقد؛ فإن سادتنا السابقين من أهل العلم اجتهدوا، وللمجتهد أجر، أخطأ أو أصاب، وإنما يُهدى الإنسان للصواب بفضلٍ من الله، وإن كانت غيرها فحسبه اجتهاده، نسأل أن يجبر كسرنا، ويستر عيبنا، وأن يعفوا عن تقصيرنا، إنه نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد

أتناول فيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بأبي تمام.

أولا: اسمه، مولده، وفاته.

اسمه: حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، كنيته أبو تمام، الشاعر، الأديب. أحد أمراء البيان.

مولده: ولد سنة ١٨٨هـ ، في جاسم . من قرى حوران بسورية . ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته، فأقام في العراق، ثم ولي بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتى توفي بها. كان أسمر طويلا، فصيحا، حلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة"(١)

وفاته: مات في خلافة الواثق سنة ٢٣١ هـ، ورثاه كثير من أهل الأدب؛ قال الحسن بن وهب يرثيه:

فُجِعَ القَرِيضُ بِخَاتَمِ الشُّعَرَاءِ ... وَغَدِيرِ رَوْضَتِهَا حَبِيْبِ الطَّائِي

مَاتَا مَعاً فَتَجَاوَرَا فِي حُفرَةٍ ... وكذاك كانا قبل في الأحياء

ورثاه محمد بن عبد الملك وهو حينئذٍ وزير فقال:

نبأٌ أَتَى مِنْ أَعظم الأنباء ... لَمَّا ألَمَّ مُقَلْقِلُ الأحشاءِ

قالوا: حَبيب قد ثَوَى، فأجَبْتُهُم ... ناشَدْتُكُمْ، لا تجعلوهُ الطّائي

ثانيا: مكانته.

من أحفظ الناس للشعر؛ يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع، في شعره قوة وجزالة، واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري، له تصانيف منها "فحول الشعراء " و "ديوان الحماسة "و "مختار أشعار القبائل" وهو أصغر من ديوان الحماسة، و "الوحشيات "وهو

(١)الأعلام ١٦٥/٢،الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشرة، مايو ٢٠٠٢ م

ديوان الحماسة الصغرى، و "ديوان شعره "، قدم إلى بغداد فجالس بها الأدباء، وعاشر العلماء؛ وكان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس، وأجازه المعتصم وقدمه على شعراء وقته." (١)

شهد له أهل العلم بنبوغه وتقدمه في الشعر، والإكثار منه؛ كان عبد الله ابن المعتز العباسي (المتوفى: ٢٩٦هـ) يستحسن شعره؛ ومما قاله عنه: "لو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد التي هي عيون شعره، لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك، وإن لم نذكر منها إلا مصراعاً، لأن الرجل كثير الشعر جداً، ويقال إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة."(٢)

وقال ابن رشيق:" وليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن أبي نواس، ثم حبيب والبحتري ويقال: إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد."(٣)

هذا وقد شُغل الناس بشعره على مر الزمان، وكان هو والبحتري والمتنبي محل حديث العلماء؛ فأقبلوا على شعرهم شرحا، ونقدا، واستشهادا، وموازنة... يقول ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٧هـ):" ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع، وانفدت شطرا من العمر في المحفوظ منه والمسموع، فألفيته بحرا لا يوقف على ساحله، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده، وتتشعب مقاصده...، وقد

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء١٢٣، لأبي البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ)، المحقق: إبراهيم السامرائي، الناشر: مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م، والأعلام ١٦٥/٢

(٢) طبقات الشعراء ٢٨٣، المحقق: عبد الستار أحمد فراج، الناشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة: الثالثة.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١٠٠/١، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م

اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس وأبي عبادة الوليد وأبي الطيب المتنبي، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزّاه ومناته، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء.

أما أبو تمام فإنه ربّ معان، وصيقل ألباب وأذهان، وقد شهد له بكل معنى مبتكر، لم يمش فيه على أثر؛ فهو غير مدافع عن مقام الإغراب، الذي برز فيه على الأضراب، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير؛ فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام، وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام؛ فخذ مني في ذلك قول حكيم، وتعلّم ففوق كل ذي علم عليم."[١]

قال عنه ابن ابن خلكان:" كان أوحد عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره وحسن أسلوبه، وله كتاب " الحماسة " التي دلت على غزارة فضله وإتقان معرفته بحسن اختياره، وله مجموع آخر مسماه " فحول الشعراء "، جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين، وله كتاب " الاختيارات من شعر الشعراء "، وكان له من المحفوظ ما لا يلحقه فيه غيره، قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع، ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم... وقال العلماء: خرج من قبيلة طيىء ثلاثة، كل واحد مجدي في بابه: حاتم الطائي في جوده، وداود بن نصير الطائي في زهده، وأبو تمام حبيب بن أوس في شعره."[٢]

(١)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٣٤٨/٢،المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان١١/٢وما بعدها، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت

المطلب الثاني: التعريف بالآمدي.

أولا: اسمه، مولده، وفاته.

اسمه: الْحسن بن بشر بن يحيى أَبُو الْقَاسِم الآمديُّ. (١)

مولده: ولد أَبُو الْقَاسِم بِالْبَصْرَةِ، وَقدم إِلَى بَغْدَاد، وَكتب بهَا لأبي جعفرٍ هَارُون بن محمد، وَمُحَمّد الضّبي؛ خَليفَة أَحْمد بن هِلَال صَاحب عمان بِحَضْرَة المقتدر ووزارته، وَلغيره من بعده وَكتب بِالْبَصْرَةِ لأبي الْحسن أَحْمد وَطَلْحَة ابْني الْحسن بن المثنَّى، وبعدهما لقَاضِي الْبَلَد أبي جَعْفَر ابْن عبد الْوَاحِد الْهَاشِمِي على الْوُقُوف الَّتِي تَلِيهَا الْقُضَاة وبحضرته فِي مجْلِس حكمه، ثمَّ لِأَخِيهِ أبي الْحسن مُحَمَّد بن عبد الْوَاحِد لما ولي قَضَاء الْبَصْرَة. (٢)

وفاته: مات بالبصرة سنة ٣٧٠ هـ ، وَقيل قبل السَّبعين، وَقيل سنة إِحْدَى وَسبعين وثلاث مائة. (٣)

ثانيا: مكانته:

من أشهر أدباء عصره، ومؤلفاته كثيرة؛ منها"كتاب المؤتلف والمختلف فِي أَسمَاء الشُّعَرَاء"، و كتاب" نثر المنظوم"، وكتاب "الموازنة بَين أبي تَمام والبحتري"؛ وَهُوَ كتاب جيدٌ وَنسب فِيهِ إِلَى الْميل مَعَ البحتري والتعصُّب على أبي تمامٍ، وَكتاب" فِي أَن الشاعرين لَا تتفق خواطرهما"، وكتاب" مَا فِي عيار الشّعْر لِابْنِ طَبَاطَبَا من الْخَطَأ"، وكتاب "فرق مَا بَين الخاصّ والمشترك من مَعَاني الشّعْر"، وكتاب" تَفْضِيل شعر امريء الْقَيْس على شعر الْجَاهِلِيَّة"، وكتاب فِي "شدَّة حَاجَة الْإِنْسَان إِلَى أَن يعرف نَفسه "، وكتاب "تَبْيِين غلط قدامَة

(١) ينظر في التعريف به:الوافي بالوفيات ٣١١/٣، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر:١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، معجم المؤلفين ٢٠٩/٣،الناشر: مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٢) السابق ٣٤٩

(٣) السابق ٣٤٩، والأعلام ٢/ ٢٨٥

بن جَعْفَر فِي نقد الشّعْر"، وكتاب "مَعَاني شعر البحتري"، وكتاب"الرّد على ابْن عمارٍ فِيمَا خطَّأَ فِيهِ أَبَا تمامٍ"، وكتاب" فعلت وأفعلت"، لم يصنَّف مثله، و كتاب "الْحُرُوف من الْأُصُول فِي الأضداد"، وَلَه غير ذَلِك، وَلَه ديوَان شعره وَهُوَ صغيرٌ."(١)

كتاب الموازنة:

من أكبر كتب الآمدي وأشهرها، تعرض فيه الآمدي للموازنة بين أبي تمام والبحتري، وصرح بأنه لن يفضل أحدهما على الآخر، والصحيح خلاف ذلك؛ حيث حمل حملة شعواء على أبي تمام، تعرض فيه لما أخطأ فيه أبو تمام في المعاني والألفاظ، ثم استعاراته التي خالف فيها أبو تمام طريقة القدماء، إلى غير ذلك من المسائل المهمة التي ضمها هذا الكتاب، فهو من عيون النقد العربي، قال عنه ابن الأثير:" وما من تأليف إلّا وقد تصفّحت شينه وسينه، وعلمت غثّه وسمينه؛ فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلّا كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمديّ، وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجيّ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا، وأجدى محصولا."(٢)

وذكر :" أن أبا القاسم بن بشر الآمدي كان أثبت القوم قدمًا في فن الفصاحة والبلاغة، وكتابه المسمى بـ"الموازنة بين شعر الطائيين" يشهد له بذلك"(٣)

وقد تعرض فيه الآمدي لكثير من المسائل النقدية، وليس المقام مناسبا لعرض ما اشتمل عليه الكتاب، وإنما يكفينا منه تلك المسائل التي لها صلة بموضوع البحث، وأذكرها في موضعها من الدراسة إن شاء الله تعالى.

(١) ينظر :الوافي بالوفيات ٣١٣/٣

(٢)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٢٣/١

(٣)السابق ٨٨/٢

المطلب الثالث: الدراسات السابقة.

من المعلوم أن شعر أبي تمام شغل أهل العلم قديما وحديثا؛ فكثرت الدراسات حوله، والتي يضيق المقام عن حصرها؛ حيث إنها من الكثرة بمكان، ومن هذه الدراسات:

١. شواهد البلاغيين والنقاد من شعر أبي تمام في علم البيان حتى نهاية القرن الخامس؛ ماجستير للباحث: سامي صالح الغامدي، جامعة أم القرى٢٠١٤م . ١٤٣٥هـ .

٢ـ نقدات الإمام عبد القاهر للطائيين: عرض، وتحليل، ونقد؛ للدكتور/رفعت علي محمد إسماعيل، الناشر: مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط ٢٠٠٨م.

٣ـ أبو تمام في موازنة الآمدي، المؤلف: ستتكيفستش سوزان بينكني، ترجمة: عثمان أحمد، مجلة فصول ١٩٨٥م.

٤ـ الشواهد الشعرية في كتاب الموازنة للآمدي مقاربة نقدية، المؤلف: سميرة أبو جرة، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري الجزائر، عام ٢٠٠١م.

٥ـ نقد كتاب الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري؛ للدكتور محمد رشاد صالح، الناشر: المركز العربي للصحافة، تاريخ النشر ١٩٨٢م.

٦. استعارات أبي تمام في ضوء عمود الشعر، للدكتور/ أحمد علي عبد العزيز يوسف، مجلة كلية الآداب جامعة بورسعيد، العدد السابع ٢٠١٦م.

هذا وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي عُنيت بكتاب الموازنة، إلا أن الكتاب ما زال بحاجة إلى مزيد من البحث؛ ففيه من مسائل البلاغة والنقد ما يحتاج إلى جهد أهل العلم، ولعل هذا البحث يضع لبنة في صرح تلك الدراسات.

المبحث الأول: شواهد الخطأ في اللفظ والمعنى.

تمهيد:

قضية اللفظ والمعنى من القضايا المهمة التي كثر الكلام حولها، ولسنا الآن مشغولين بما شُغِل به بعض أهل العلم من تفضيل لأحدهما على الآخر؛ فمثل هذا له مقامه الذي يدرس فيه؛ وإنما أتحدث عما قاله السابقون فيما يجب توافره في اللفظ والمعنى؛ حتى يخرج الكلام في أفضل حلله، ثم نطبق ذلك على شيء من شعر أبي تمام؛ فندرس تلك الأبيات التي عابها الآمدي بسبب معناها أو لفظها.

ومن المعلوم أن المتكلم يجب عليه أن يتأنق في كلامه؛ فيتجنب كلَّ شيء من شأنه أن يقدح في بلاغة المعنى، وقد أهتم السابقون ببيان هذا؛ يقول أبوهلال في حديثه عن خطأ المعانى وصوابها؛ ليتّبع من يريد العمل مواقع الصواب فيرتسمها، ويقف على مواقف الخطأ فيتجنّبها:"إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدلّ عليها ويعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ؛ لأنّ المدار بعد على إصابة المعنى، ولأنّ المعانى تحلّ من الكلام محلّ الأبدان، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة... ومن عرف ترتيب المعانى واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات، ثم انتقل فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال."[1]

وجاء عند الجاحظ في حديثه عن حد البيان:" قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم،

(١)ينظر: الصناعتين١٢٤ المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت،عام النشر: ١٤١٩ هـ

والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره. وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وأخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا. وهي التي تلخص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقا، والمجهول معروفا، والوحشي مجلوفا، والغفل موسوما، والموسوم معلوما. وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين"[١]

فالمعاني كما بيّن الجاحظ يجب أن تكون واضحة لا غرابة فيها ولا التواء، والألفاظ شأنها شأن المعاني ؛ فهي الحلة التي تبرز فيها المعاني، وعلى المتكلم أن يبرز معانيه في أفضل لفظ، وأسهل عبارة، يقول ابن طباطبا (المتوفى: ٣٢٢هـ):" فإذاَ أرَادَ الشَّاعِرُ بناءَ قَصيدةٍ مخَضَ المَعْنى الَّذِي يُرِيد بِنَاءَ الشِّعر عَلَيْهِ فِي فِكْرِهِ نَثْراً، وأعَدَّ لَهُ مَا يُلْبسُهُ إيَّاهُ من الْأَلْفَاظ الَّتِي تُطَابِقُهُ، والقوافي الَّتِي توافِقُهُ، والوَزْنِ الَّذِي سَلَسَ لَهُ القَوْلُ عَلَيْهِ، فَإذا اتَّفَقَ لَهُ بيتٌ يُشَاكِلُ المَعْنَى الَّذِي يرومُهُ أثْبَتَهُ وأعْمَلَ فِكْرَهُ فِي شُغْل القوافي بِمَا تَقْتَضِيهِ من الْمعَانِي على غير تَنْسِقٍ للشِّعر وتَرْتيبٍ لفُنونِ القَوْلِ فِيهِ بل يُعَلِّقُ كلَّ بيتٍ يَتَّفِقُ لَهُ نَظْمُهُ على تَفَاوُتِ مَا بَيْنَهُ وبَيْنَ مَا قبلَهُ، فَإذا كَمُلَتْ لَهُ المَعَاني، وكَثُرت الأبياتُ، وَفّقَ بَينهَا بأبياتٍ تكونُ نظاماً لَهَا، وسِلْكاً جَامعا لما تشَتَّتِ مِنْهَا. ثمَّ

(١)البيان والتبيين ١/ ٨١، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت،عام النشر: ١٤٢٣ هـ

يتأَمَّلُ مَا قد أدَّاه إِلَيْهِ طَبْعُهُ، ونَتَجَتْهُ فِكْرَتُهُ فَيَسْتَقْصِي انتقادَهُ، ويَرُمُّ مَا وَهَى منهُ، وَيُبْدِلُ بكُلِّ لَفْظَةٍ مُسْتكرهَةٍ لَفْظَةً سَهْلةً نَقِيَّةً."(١)

وأبو تمام واحد من الشعراء الذين شغلوا النقاد؛ فكثر الحديث عن معانيه، حيث كان مولعا بالغوص عن المعاني، فله فيها الجديد المبتكر؛ يقول عنه الأستاذ أحمد صقر:" كان فطناً شديد الفطنة، قوي العارضة، حاضر البديهة. وقد واتته هذه الخلال ومكنت له من الغوص على المعاني؛ فكان لا يزال يجد في أثرها حتى يصل إلى ما يعسر على غيره متناوله."(٢)

وبسبب حرص أبي تمام على التأنق في معانيه، والبحث عن الجديد فيها، وإن كلفه ذلك مخالفة السابقين فيما ذهبوا؛ كان شعره هدفا لسهام النقاد؛ والآمدي واحد من هؤلاء النقاد الذين شُغلوا بالحديث عن معاني أبي تمام؛ وقد ذكر أن:" أبا تمام شديد التكلف، صاحب صنعةٍ، ومستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولدة، فهو بأن يكون في حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه أحق وأشبه، وعلى أنى لا أجد سبكة وصحة معانيه، ويرتفع عن سائر من ذهب هذا المذهب وسلك هذا الأسلوب؛ لكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته."(٣)

هذا وقد نقل الآمدي عن السابقين أن أبا تمام أفسد الشعر؛ بالتكلف والإسراف في طلب الاستعارة والطباق، والمعاني الغريبة التي لا نصل إليها إلا بكد الذهن، وأنه لو أتى بالكلام على سجيته دون تكلف لخرجت في صورة

(١)عيار الشعر٨، المحقق: عبد العزيز بن ناصر المانع، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة

(٢)الموازنة ١/ ٨ بين شعر أبي تمام والبحتري١/ ٨، تحقيق/ السيد أحمد صقر
الناشر: دار المعارف – الطبعة الرابعة [.

(٣)السابق ١/ ٥

مقبولة، لا لبس فيها ولا أثر للصنعة، ومما قاله الآمدي:" أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد، وأن أبا تمام تبعه فسلك في البديع مذهبه فتحير فيه، كأنهم يريدون إسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات، وإسرافه في التماس هذه الأبواب وتوشيح شعره بها، حتى صار كثيرٌ مما أتى به من المعاني لا يعرف ولا يعلم غرضه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن والحدس، ولو كان أخذ عفو هذه الأشياء ولم يوغل فيها، ولم يجاذب الألفاظ والمعاني مجاذبة ويقتسرها مكارهة، وتناول ما يسمح به خاطره وهو بجمامه غير متعب ولا مكدود، وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن، ولم يفحش، واقتصر من القول على ما كان محذوا الشعراء المحسنين؛ ليسلم من هذه الأشياء التي تهجن الشعر وتذهب ماءه ورونقه."(١)

وكان نتيجة ذلك أن خلط الحسنَ بالقبيح، وكان الناس أمام ذلك فرقتين؛ ما بين مؤيد ومدافع له عن كل ما قال، ويلتمس له العذر فيما ظاهره الخطأ، وأخرى تجنّت عليه؛ فحملوا عليه حملة شعواء، فعابوا قوله ولو كان حسنا مقبولا.

أما الآمدي فقد ذكر أنه وقف موقفا وسطا؛ فنافح عن حسنه، وبيّن للمتعصبين له عيبه، ثم ذكر أنه جمع الأبيات التي أخطأ فيها الطائي، فما يمكن التماس العذر له تركه، وأما لا يحتمل تأويلا ذكره؛ حيث قال:" وأنا أذكر ما غلط فيه أبو تمام من المعاني والألفاظ، مما أخذته من أفواه الرجال وأهل العلم بالشعر عند المفاوضة والمذاكرة، وما استخرجته أنا من ذلك واستنبطته، بعد أن أسقطت منه كل ما احتمل التأويل، ودخل تحت المجاز."(٢)، وعليه فإن

(١)الموازنة ١٣٧/١

(٢)السابق ١٤١

تلك الأبيات التي سأذكرها هي ما أخطأ فيها أبو تمام، ولا يمكن التماس العذر له فيها، ولا وجه لتأويلها؛ على نحو ما ذكر الآمدي.

ولقد راجعت كل هذه الأبيات التي أوردها الآمدي، وزعم أن لا وجه لتأويلها، أو التماس عذر لقائلها، فوجدت منها ما ينطبق عليها قوله؛ فلم أجد أحدا من أهل العلم مدحها، أو التمس العذر فيها، أو حملها على محمل يخرجها من دائرة الذم، فالجميع على ذمها، ومثل هذه الأبيات أعرضت عنها؛ إذ لا جديد فيها، وإنما الشأن في تلك الأبيات التي ادعى صاحب الموازنة أنه لا يمكن التماس العذر فيها، ثم وجدت ثلة من أهل العلم يخالف ذلك؛ فيحملها على محمل حسن، مخالفين صنيع الآمدي، بل أحيانا يتهمونه بأنه تجنى على أبي تمام فيها.

وفي الصفحات القادمة أذكر تلك الأبيات، ثم أناقشها مناقشة علمية في ضوء ما قاله أهل العلم؛ لنرى هل صدق الآمدي فيما قال؟ أم أن المسألة فيها قول آخر.

الشاهد الأول:

ذكر الآمدي أن العباس بن عمار[١] أنكر قول أبي تمام:

مِن الهِيفِ[٢] لو أَنَّ الخلاخِلَ صُيِّرتْ ... لها وُشُحاً[٣] جالتْ عليها الخَلاخِلُ

(١) توفي أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْن عُبَيْد اللَّهِ بْن مُحَمَّد بْن عمار فِي شهر ربيع الأول من سنة أربع عشرة وثلاثمائة. تاريخ بغداد وذيوله٦/٥الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ

(٢) الهِيفُ: جَمْعُ أَهْيَف وهَيْفاء، وَهُوَ الضَّامِرُ الْبَطْنِ. لسان العرب: هيف.

(٣) الوُشاحُ: حَلْيُ النساءِ، كِرْسانِ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَجَوْهَرٍ مَنْظُومَانِ مُخالَفٌ بَيْنَهُمَا مَعْطُوفٌ أَحدُهما عَلَى الْآخَرِ، تَتَوَشَّحُ المرأَةُ بِهِ، وَمِنْهُ اشْتُقَّ تَوَشَّحَ الرجلُ بِثَوْبِهِ، وَالْجَمْعُ أَوشِحةٌ ووُشُحٌ ووَشائِحُ.لسان العرب: وشح.

من المعلوم أن دقة الخصر مما تمدح به النساء، وفي هذا البيت أراد أبو تمام وصف تلك المرأة بالرشاقة، ودقة الخصر، فخانه اللفظ، وعابها من حيث لا يدري، على نحو ما ذهب إليه الآمدي، يقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي:" أراد وصفها بدقة الخصر، فكنى عنه بأن الخلاخل لو جُعلت لها وشحا لجالت عليها، وهذا لا يدل على مراده، بل يدل على بلوغها غاية القِصَر؛ لأنه أمكن أن تكون الخلاخل وشحا لها، والوشاح يضرب لها من العاتق إلى الكشح." (١)

هذا البيت مما عابه الآمدي على الطائي؛ حيث ذكر أن ابن عمار أنكره . كما سبق . ثم ذكر أن ابن عمار لم يبيّن وجه الخطأ فيه، بل ولا يعرفه، فأخذ الآمدي يبيّن وجه العيب في البيت فقال:" إن هذا الذى وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب، وهو أقبح ما وصف به النساء؛ لأن من شأن الخلاخيل والبرين أن توصف بأنها تعض في الأعضاد والسواعد وتضيق في الأسواق، فإذا جعل خلاخيلها وشحاً تجول فقد أخطأ الوصف؛ لأنه لا يجوز أن يكون الخلخال –الذي من شأنه أن يعض بالساق – وشحاً حائلا على جسده؛ لأن الوشاح هو ما تقلده المرأة متشحة به، فتطرحه على عاتقها، فيستبطن الصدر والبطن، وينصب جانبه الآخر على الظهر حتى ينتهي إلى الحجز، ويلتقى طرفاه على الكشح الأيسر؛ فيكون مها في موضع حمائل السيف من الرجال، وإذا كانت هذه صورة الوشاح فغير جائز يوسف بالسعة والطول، ليدل على تمام المرأة وطولها، وكون ذلك لائقاً بتشبيه النساء في البيت الثاني بقنا الخط، وإنما يوصف الوشاح بالقلق والحركة ليستدل بذلك على دقة الخصر؛ لأنه يقلق

(١) بغية الإيضاح ٢١/١، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

هناك إذا كان الخصر دقيقاً، والبطن اضمر، بل حركته تدل على ضمر البطن أكثر، وليس طوله في نفسه مما يدل على امتلاء ولا خمص، وإذا كان الخلخال – وهو الحلقة المستديرة المعروف قدرها – وشاحاً للمرأة فإن يأخذ أعلى جسده كله، وإذا كانت كذلك فقد مسخت إلى غاية القماءة والصغر، وصارت في هيئة الجعل"[1]

مفاد كلام الآمدي أن أبا تمام خالف ما تكلمت به العرب؛ فالعرب وإن كانت تمدح النساء بالرشاقة؛ من ضمور البطن، ودقة الخصر، فليس إلى تلك الدرجة التي يكون الخلخال لها وشاحا؛ فمن المعلوم أن الخلخال مما تتزين به النساء في أرجلهن، أما الوشاح فهو ما تتوشح به فتضعه على عاتقها وصدرها وينزل إلى بطنها، فهو يشبه حمالة السيف من الرجل، والمرأة مهما بلغ بها الضمور والرشاقة فلن يصل تلك الدرجة التي يكون الخلخال لها وشاحا، فقد تناهت بذلك في الصغر حتى مسخت جعلا؛ وهو الدابة التي تشبه الخنفساء، على نحو ما ذكر الآمدي.

ولم يكن الآمدي وحده من استدرك هذا على الطائي؛ بل قاله كثير من أهل العلم؛ وقد ذكر القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ) البيت ثم قال:" أراد وصفها بدقّة الخصر، فوصفها بغاية القصر والضئولة؛ لأن الوشاح يؤخذ من العاتق ويوشح إحدى طرفيه الصّدْر والبطن، والآخر الظهر، حتى ينتهيا الى الكشح ويلتقيا على الوِرك. وكيف حالُ من يجول الخلخال من عاتقها وكشحها، وهل تكون هذه من البشَر فضلاً عن أن تُنسَب الى الحُسن!"[2]

---

(١)الموازنة ١٤٧/١، الجُعَل: دَابَّةٌ سَوْدَاءُ مِنْ دَوَابِّ الأَرض،هُوَ حَيَوَانٌ مَعْرُوفٌ كالخُنْفُساء.ينظر

لسان العرب:جعل.

(٢)الوساطة بين المتنبي وخصومه٧٨

كلام القاضي الجرجاني بيّنٌ في أن ما جاء به أبو تمام يجعل تلك المراة لا تكون من البشر؛ فهي بذلك غاية في الضئولة والقصر، فأي حسن هذا الذي يبحث عنه الطائي؟!

وعلى نهجهما سار أبو هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)؛ حيث عدّه من أخطاء أبي تمام، وقال:" وذلك أنّ الخلخال قدره فى السعة معروف، ولو صار وشاحا للمرأة لكانت المرأة فى غاية الدّمامة والقصر، حتى لو كانت هى فى خلقة الجرذ والهرّة،"(١)

إن المرأة التي يكون الخلخال لها وشاحا، هي غاية في الدمامة والقصر، وقد جعلها أبو هلال جرذا وهرة، ومن قبله جعلها الآمدي جعلا.

وعلى منوالهم نسج القلقشندي؛ حيث ذكر بيت أبي تمام،... ثم قال: فجعل الخلخال يجول في بدنها، ولكنه ليس من المدح في شيء لأن الخلخال لو صار وشاحا للمرأة لكانت في غاية الدّمامة حتّى تصير في خلقة الجرو والهرّ."(٢)

هذا وإذا كان الآمدي ومن نهج نهجه قد عابوا البيت واستقبحوه، فهناك من أهل العلم من يستحسنه، ويدافع عنه، بل ويفضله على غيره من الأبيات التي تتحدث عن رشاقة النساء، فقد استحسنه ابن أبي عون (المتوفى: ٣٢٢هـ)؛ حيث جاء في تشبيهاته:" وضمور الكشحِ وجولان الوشاح عندهم مستحسن، وقال الطائي في ذلك..."(٣) وذكر البيت.

نعم ضمور الكشح وتحرك الوشاح مستحسن عند العرب، ولكن لا تبلغ المرأة في الضمور حدا يجعلها تتوشح بخلخالها.!

---

(١)الصناعتين ١٢٠

(٢) ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ٢١٥/٢، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت

(٣)التشبيهات ٢٤

وقد رد السري الرفاء (المتوفى: ٣٦٢هـ) قول الآمدي؛ حيث قال:" وقد خطأ أبو القاسم الآمدي، في كتاب الموازنة بين الطائيين، أبا تمام في قوله:... وذكر البيت محل الدراسة وبيتا آخر، ثم قال:" والصواب في البيتين في يد أبي تمام. وأبو تمام قلما يؤتى من المعاني، وإنما يتعمق فيحيل. والقلب إذا أكره عمي. والخاطر إذا اعتسف تبلد. وأحسن الكلام ما أخذ عفوه، وقبل ميسوره. واللفظ صورة والمعنى روح لها، وبها يكتحل البصر أولاً، فإذا راقت وحسنت اغتفر ما دونها من خلل." (١)

لا تخفى الحدة المبالغ فيها من السري الرفاء على الآمدي؛ حيث جعل ما قاله الآمدي تعسفا جاء به خاطر متبلد، وقلب كره فعمى، وأن الصواب في يد أبي تمام؛ فهو يتعمق في المعاني، والمعنى إذ رق وحسن، غُفِر ما فيه من خلل.

وقد ذكره ابن وكيع (المتوفى: ٣٩٣هـ) في حديثه عن توليد المعاني بعضها من بعض، فبيّن أن قول المتنبي:

بِجِسْمِي مَنْ بَرَتْهُ فَلَوْ أَصَارَتْ ... وِشَاحِي ثُقْبَ لؤلؤةٍ لَجَالاَ

مأخوذ من قول أبي تمام السابق ذكره، وعلق قائلا:" جعل أبو تمام الخلخال إذا كان وشاحاً لها كان جائلاً، وصير أبو الطيب ثقب اللؤلؤة لو كان وشاحاً لها لجال وهذا من توليد كلام من كلام معناهما متفق ولفظهما مفترق"(٢)

ولم يذكر ابن وكيع شيئا يقدح في بلاغة البيت، بل ذكر أنه سبق إلى المعنى، وأخذه عنه المتنبي.

(١)المحب والمحبوب والمشموم والمشروب٣٥

(٢) المنصف للسارق والمسروق منه ، ٦١٩ حققه وقدم له: عمر خليفة بن ادريس الناشر: جامعة قات يونس، بنغازي، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م

وعلى النهج السابق أورده الحُصري القيرواني (المتوفى: ٤٥٣هـ)، ولم يعلق عليه بشيء، وذكره أيضا البغدادي في نعت لباسهنّ وزينتهنّ [١]

هذا وقد ذكر البيت عزُّ الدين الأزدي (المتوفى: ٦٤٤هـ) في سياق حديثه عن قول المتنبي :

ترفعُ ثوبَهَا الأردافُ عَنْهَا ... فَيَبْقَى من وِشَاحَيْهَا شَسُوعَا

حيث ورد عنده"يريد بالوشاحين قلادتين تتوشح بهما المراة؛ ترسل إحداهما على جنبها الأيمن، والأخرى على الجانب الأيسر. يقول: أردافهما سمينة، عظيمة، شاخصة عن بدنها، ترفع ثوبها، وتمنعه من أن يلاصق جسدها حتى يكون بعيدا عما توشحت به من القلائد. وأقول: هذا ليس بشيء، والوشاح يكون على خصرها بمنزلة القلادة في عنقها، ويدل على ذلك قول أبي تمام..." [٢] ، وذكر البيت دون أن يجعل هذا مأخذا على قائله؛ فلو كان يعده من أخطاء المعاني لبيّن ذلك؛ كما هو الشأن في مواضع كثيرة من كتابه.

وقد استحسنه أيضا الشُّريشي (المتوفى: ٦١٩ هـ)، وذكره فيما يتظرف من أوصاف النساء. [٣]

هذا وفي النهاية أقول: إننا بصدد قولين مختلفين في هذا المعنى الذي اشتمل عليه البيت؛ القول الأول يذهب أصحابه . على رأسهم الآمدي . إلى أن

---

(١) ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب٢/٤٤٦، التذكرة الحمدونية٥/٣١٦

(٢)المآخذ على شُرّاح ديوان أبي الطَّيب المُتَنَبِّي ٥/٧٢،المحقق: الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع،الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م

(٣) ينظر: شرح مقامات الحريري١/٢٨٤،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ٢٠٠٦ م – ١٤٢٧ هـ

المعنى غاية في القبح، وأن أبا تمام قد خالف العرب فيما قال، ولا وجه له فيما جاء به، والثاني يستحسن المعنى، ويفضله على غيره من الشعر الذي جاء في هذا المعنى، وأن ما ذهب إليه الآمدي حمله عليه كره أبي تمام، وتعسفٌ لا مبرر له.

أقول: أوافق الآمدي ومن نهج نهجه في أن أبا تمام عاب المرأة من حيث لا يدري، فإذا كان ضمور الخصر، ودقة الجسم مما يُستحن في النساء، فلا تصل النحافة درجة يصلح فيها الخلخال أن يكون وشاحا لتلك المرأة، فقد وصلت بذلك في النحافة حد القبح، الذي صارت فيه غاية في الدمامة، حتى صارت جعلا على النحو الذي سبق بيانه.

وأن من يدافع عن أبي تمام ويلتمس عذرا له لا وجه لما جاء به، فالشاعر له أن يتعمق في خياله، ولكن أي خيال هذا الذي يجعل المراة في نحافتها كدابة من دواب الأرض؟، يدخل الخلخال فيها، فيصل عنقها وكتفها وبطنها؛ إنها غاية القصر والقبح.

الشاهد الثاني:

في حديث الآمدي عن المعاني والألفاظ التي أخطأ فيها أبو تمام قال:" ومما أخطأ فيه الطائي البيت الذي بعد قوله:

مِن الهِيفِ لو أَنَّ الخلاخِلَ صُيِّرتْ ... لها وُشُحاً جالتْ عليها الخَلاخِلُ

وهو قوله:

مَهَا الْوَحْشِ إِلَّا أَنَّ هَاتَا أَوَانِسٌ ... قَنَا الْخَطِ إِلَّا أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

وإنما قيل للقنا " ذوابل " للينها وتثنيها، فنفى ذلك عن قدود النساء التي من أكمل صفاتها التثنى واللين والانعطاف، كما قال تميم بن أبي بن مقبل:

يهززن للمشي أوصالاً ... هز الجنوب ضحى عيدان يبرينا

أو كاهتزاز ردينى تداوله ... أيدي التجار فزادوا متنه لينا

فشبه تميمٌ قدودهن بالردينى للينه وتثنيه لا غير، هذا أجود من كل ما قاله الناس في مشي النساء وحسن قدودهن، وقوله " مها الوحش " أراد كمها الوحش إلا أن هاتا أوانس؛ فوضع المشبه به في مكان المشبه، وهذا في كلامهم شائع مستفيض."(١)

البيت السابق شبه فيه أبو تمام سعة عيون النساء وجمالها ببقر الوحش، وكذلك تشبيههنَّ بالرماح في اعتدال القامة، وهو من الشواهد المشهورة في كتب أهل العلم في حديثهم عن الألفاظ التي تتقابل في المعنى فقط؛ فالطباق بين "هاتا" التي هي للبعيد، و"تلك" للقريب من جهة المعنى فقط، هذا ما ذكره البلاغيون فيه، ولا مشكلة في ذلك، ولكن الآمدي خطّأ أبا تمام في أمر أخر؛ يتمثل في أنه شبه النساء بالقنا، والتشبيه بالقنا يكون في التثني واللين كما هو معلوم، وهذا مما تمدح به النساء، وأبو تمام شبههن بالقنا . كما سبق . لكن قال بعدها:" إِلَّا أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ "؛ والمراد بها التثني واللين للقنا، فأثبت هذه الصفات للقنا، ونفاها عن النساء، فالخطأ جاء من تلك الجهة؛ أن نفى عنهن أفضل ما تمدح به النساء؛ وهو التثني واللين، وإذا ذهبت تلك الصفات عنها كان ذلك موضع ذم، فقد عابهن أبو تمام من حيث لا يشعر.

وبدراسة هذا البيت في ضوء ما قاله أهل العلم يتبيّن لنا أن المسألة فيها وجه آخر؛ فما عابه الآمدي استحسنه غيره؛ فقد أورد القاضي الجرجاني البيتَ واستحسنه؛ ففي سياق حديثه عن المطابقة أورد بيتا للبحتري، ثم أورد بيت الطائي محل الشاهد، وقال:" وقد يجيء منه جنسٌ آخر تكون المطابقةُ فيه بالنفي، كقول البحتري:

يُقيّض لي من حيث لا أعلم الهوى ... ويسري إليّ الشوق من حيث أعلم

(١) الموازنة ١٥٨/١

لما كان قوله: لا أعلم كقوله: أجهل، وكان قوله: أجهل مطابقة كان الآخر بمثابته. ومن أغرَب ألفاظه وألطف ما وُجِد منه قول أبي تمام:

مَها الوحش إلا أنّ هاتا أوانِسٌ ... قَنا الخطِّ إلا أنّ تلْك ذَوابِلُ

فطابق بهاتا وتلك وأحدهما للحاضر، والآخر للغائب، فكانا نقيضين في المعنى، وبمنزلة الضدين. "[1]

وقد يقول قائل إن:القاضي الجرجاني قد تعرض للمطابقة التي وردت في البيت واستحسنها، دون أن يتعرض لهذا الذي ذكره الآمدي، أقول: لو كان القاضي يرى أن الاستثناء الذي ختم به الطائي بيته يقدح في بلاغته لنبه على ذلك، فلا أعلم عن القاضي الجرجاني أن يستحسن بيتا، ويعلم أن فيه خطأ، ولا يبيّنه؛ إذ ليس ذلك من نهجه.

وقد أورد البيتَ جماعةٌ من أهل العلم واستحسنوه، ولم يقفوا على هذا المأخذ الذي وقف عنده الآمدي؛ فقد أورده الحُصري القيرواني (المتوفى: ٤٥٣هـ) ضمن أبيات رائعة استشهد بها على أوصاف النساء، وذكره ابن سنان الخفاجي، وكذلك قال العلوي؛ في حديثهم عن المناسبة بين الألفاظ من طريق المعنى، وبينوا أن مثل هذه المناسبة هي التي تؤثر في الفصاحة والشعراء الحذاق والكتاب يعتمدونها في كلامهم، وأوردوا بيت أبي تمام شاهدا عليها.[2]

وإذا كان الجرجاني ومن نهج نهجه قد جاء استحسانهم للبيت ضمنا، فإن غيرهم قد صرح بحسنه، وأن الصواب ما جاء عليه، وردَّ قول من خطَّأ أبا تمام؛ يقول ابن رشيق:"أما أبو تمام فقوله الصواب؛ لأنهم يقولون رمح ذابل إذا

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٣٢

(٢) ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب ٤٤٦/٢، الطراز ٢٠٠/٢ الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ ، سر الفصاحة ١٧٠/١، الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م

كان شديد الكعوب صلباً، وهو الذي تعرف العرب، ومنه قولهم: " ذبلت شفتاه " إذا يبستا من الكرب أو العطش أو نحوهما، فأما كلام المعترض فغير معروف إلا عند المولدين؛ فإنهم يقولون: " نوارة ذابلة " وليسوا بقدوة؛ على أن كلامهم راجع إلى ما قلناه، إنما ذلك لقلة المائية وابتداء اليبس، وإنما نقل عبد الكريم كلام ابن بشر الآمدي."(١)

قول أبي تمام . عند ابن رشيق هو الصواب؛ إذ هو الذي تعرفه العرب، فيقال: " ذبلت شفتاه "؛ إذا يبست وجفت من الحزن، والمعنى ذهب لينها، وبقيت صلبة، وهذا الذي أثبته للقنا ونفاه عن النساء، ولو أثبت ذلك للنساء لكان هو الذم بعينه.

وقد أفاد ابن أبي الأصبع من قول ابن رشيق السابق، وزاده إيضاحا؛ حيث قال:"وهذا البيت من أفضل بيوت المناسبة؛ لما انضم إليها فيه من المحاسن، فإن فيه مع المناسبتين التشبيه بغير أداة والمساواة، والاستثناء، والطباق الفظي، وائتلاف اللفظ مع المعنى والتمكين، فأما المناسبة فقد ذكرناها، وأما التشبيه ففي قوله: مها وقنا، فإن التقدير كمها وقناً، فحذف الأداة ليدل على قرب المشبه من المشبه به، وأما الاستثناء البديعي ففي قوله: إلا أن هاتا أوانس وقوله: إلا أن تلك ذوابل ليثبت للموصوفات التأنيس والتحبب، وينفي عنهن النفار والتوحش، وكذلك فعل في الاستثناء الثاني، فإنه أثبت به لهن اللين واللدونة؛ ونفى عنهن ما يستهجن، وأما المطالبة ففي قوله الوحش والأوانس، وهاتا وتلك فإن هاتا للقريب، وتلك للبعيد، وأما المساواة فلأن لفظ البيت لا يفضل عن معناه، ولا يقصر عنه، وأما الائتلاف فلكون ألفاظه من واحد متوسطة بين الغرابة والاستعمال، وكل لفظة منها لائقة بمعناها، لا تكاد

(١)العمدة ٢٤٧

يصلح موضعها غيرها، وأما التمكين فلأن قافية البيت مستقرة في موضعها، غير نافرة من محلها، ومن غير أن يتقدمها شيء من لفظها يدل عليها، كما يقع في التوشيح والتصدير "[١]

فالاستثناء الذي قدح في بلاغة البيت عند الآمدي، يراه ابن أبي الأصبع بديعا؛ فإنه أثبت به للنساء اللين، ونفى عنهن ما يستهجن، بل صرح بغلط الآمدي فيما ذهب إليه، وأن الصواب بجانب أبي تمام؛ فما زعمه من أبا تمام نفى اللين عن النساء لا وجه له، فالآمدي يعتقد أن الرماح سميت ذوابل للينها،:" وقد غلط الأمدي في تغليط أبي تمام في هذا البيت، حيث زعم أنه نفى عن النساء لين القدود، معتقداً أن الرماح سميت ذوابل للينها، والمعروف عند أهل اللسان ضد ذلك، لأن العرب تقول رمح ذابل إذا كان صلب الكعوب، ومن ذلك قولهم ذبلت شفتاه إذا يبستا، ولا تعرف العرب الذابل إلا اليابس الذي جفت رطوبته، ومن ذلك قولهم: نوارة ذابلة إذا جف ماؤها وأخذت في اليبس، وأبو تمام لا يشك أحد أنه أبصر من الآمدي باللغة، وأقعر منه بمعرفة اللسان العربي."[٢]

وفي النهاية أقول: كلام بن أبي الإصبع يكتب بماء العين، وأن الصواب في يد أبي تمام، وما جاء به أليق بالمقام؛ وموافق لما تكلمت به العرب؛ إذ هو أبصر باللغة من صاحب الموازنة.

ولصاحب الأطول توجيه لطيف؛ حيث قال:"قنا الخطّ إلا أنّ تلك ذوابل" ويقال قنا ذابل، أي رقيق لاصق القشر، النساء نواضر لا ذبول فيها، فأين هن من القنا، هذا شرحه الشارح المحقق، ويمكن أن يكون الإشارة بهاتا إلى مها

(١) تحرير التحبير ٣٦٨. تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي

(٢)السابق.

الوحش، على طبق تلك، وتكون وصفا للنساء بكمال توحشهن، وحيائهن، وتحسرا على أنه لا يمكن الوصول إليهن، وحينئذ يمكن لك أن تجعل ذبول القنا كناية عن كونها مما يحيط به الكف، وعد ذبولهن كناية عن كونهن مما لم يمكن أخذهن، والإحاطة بهن" [١]

الشاهد الثالث:

بيومٍ كَطولِ الدّهر في عرض مثلِه ووجدى من هذا وهذاك أطولُ

قال الآمدي:" ومن خطائه قوله..وذكر البيت... ثم بيّن وجه الخطأ فيه فقال:" فجعل للدهر – وهو الزمان – عرضاً، وذلك محض المحال، وعلى أنه ما كانت به إليه حاجة؛ لأنه قد استوفى المعنى بقوله: " كطول الدهر " فأتى على العرض في المبالغة."[٢]

عاب الآمدي البيت من جهة أن أبا تمام جعل للزمان طولا وعرضا؛ وإثبات الطول للزمان شائع معلوم، أما العرض فغير جار على اللسان، ومعنى البيت أن يومه طويل طول الزمان، ولم يكتف بذلك بل جعل طوله في عرض مثله، وشوقه أطول من هذا وذاك. فهي مبالغة غير مقبولة، وما كان مضطرا لها، فالمعنى قد استوفى عند قوله:"كطول الدهر"، ثم بالغ في القول وذكر للدهر عرضا.

وإذا كان الآمدي خطأ الطائي في ذلك، فإن بعضا من أهل من العلم جعلوا صنيعه ظلما صريحا؛ لأن أبا تمام سلك مسلك غيره؛ ويعد المرزوقي (المتوفى: ٤٢١ هـ) أول من أشار إلى هذا؛ حيث قال:" وقيل جعل للزمان عرضاً مع أنه لا حاجة به إليه، إذ كان بذكر الطول قد استوفى المعنى

(١)الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ٤٨٠/٢، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان

(٢)الموازنة١ /١٩٦

المقصود. وهذا من قائله ظلمٌ صريحٌ لأنه سلك مثل طريقة كثيرٍ من التشبيه بالمجسم، فكما قال في الأخلاق لها عرضٌ وطولٌ، كذلك قال في الزمان له طول كذا فيعرض مثله، ولا فصل."(١)

لا يخفى أن المرزوقي قصد الآمدي بهذا الكلام، وإن لم يصرح بذلك؛ حيث لم يجعل هذا مأخذا على أبي تمام غير الآمدي، والمرزوقي يجعل ما جاء به أبو تمام طريقة الناس في نسبة الطول والعرض إلى كثير من الأشياء، ثم ذكر في موضع آخر شاهدا جعل فيه القائل طولا وعرضا إلى الليل، فقال:" وقال حندج بن حندج:

في ليل صول تناهى العرض والطول ... كأنما ليله بالليل موصول

لا فارق الصبح كفي إن طفرت به ... وإن بدت غرةٌ منه وتحجيل

لساهر طال في صولٍ تململه ... كأنه حيةٌ بالسوط مقتولٌ

جعل الليل كالمجسمات حتى صار ذا طول وعرض عنده. وقال:" تناهى العرض والطول " لأنه قد علم أنهما لليل، كما أنك تقول: زيد حسن الوجه، لأنه علم أنه لم يرد إلا وجهه. والمعنى أن في ليل هذا المكان بلغ الطول والعرض نهايتهما وغايتهما، حتى وقفا لا مستزاد فيهما، فكأنما ليل صولٍ موصولٌ بجنسه كله، فليس ينقطع ولا ينكشف."(٢)، ثم استشهد ببيت أبي تمام بعده.

وقد أخذ البيضاوي كلام المرزوقي بفصه ونصه فقال:" وهذا من قائله ظلم لأنه سلك مثل طريقه كثير من التشبيه بالمجسمة، وهذا كما قال في

(١) شرح ديوان الحماسة ٥٢٩، المحقق: غريد الشيخ ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م

(٢)السابق ١٢٨١

الأخلاق: لي عرض وطول وكذا في الزمان له كذا في عرض مثله ولا فصل."[١]

ولم يكن المرزوقي ومن تبعه وحدهم في التماس العذر للطائي، فعلى هذا النحو سار أبو العلاء المعري فقد حمل كلامه على الاستعارة فقال:".. لما جعل للدهر طولا وصله بالعرض على معنى الاستعارة، ولا حقيقة بأن يوصف الدهر بذلك، وإنما هو طويل لا غير، فأما العرض فإنما هو على الأماكن وما جرى مجراها، فأما الدهر فطويل، ما عُلِم أن أحدا قبل الطائي وصفه بالعرض، ولكنه لما تقدم ذكر الطول استجاز أن يجيء بضده"[٢]

لم يعلم أبو العلاء أحدا قبل أبي تمام جعل للدهر طولا وعرضا، ولمّا جعل له طولا جاز أن يجعل له عرضا.

بهذا يتبيّن أننا أمام رأيين مختلفين؛ رأي عاب أبا تمام في أن جعل عرضا للدهر، ثم جعل طوله مضروبا في عرضه، دون داع لتلك المبالغة، وكان يكفيه أن يذكر طوله فقط.

ورأي آخر جعل هذا مما تكلم به السابقون، ولا مشكلة فيما صنعه أبو تمام، أو يحمل الكلام على الاستعارة، فكما جعل للدهر طولا فما المانع أن يكون له عرض؟

---

(١)حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي١/١٤٤،دار النشر: دار صادر – بيروت.

(٢) شرحا أبي العلاء والخطيب التبريزي على ديوان أبي تمام دراسة نحوية صرفية٣٤٢،الناشر: رسالة ماجستير – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة، بإشراف: د محمد جمال صقر

أقول: أوافق الآمدي فيما ذهب إليه؛ فلا وجه للطائي في أن يجعل لليوم في هذا المقام. طولا و عرضا، والكلام برمته وإن كان قائما على المبالغة، لكنها مبالغة غير مقبولة، التكلف فيها بيّن، وإنما تقبل المبالغة إذا وقعت من الكلام موقعها اللائق بها؛ فجاءت مناسبة للسياق، لا تشعر فيها بكلفة، أو غير ذلك مما يقدح في بلاغة الكلام.

وإذا نظرنا إلى كلام أبي تمام من تلك الجهة تجد ثقلا في النفس من تلك المبالغة، فلا تأنس بها، بل يأبى الذوق مثلها، وكان يكفي أبا تمام من المبالغة أن يجعل طول اليوم كطول الزمان، وما كانت الحاجة داعية أن يجعل له عرضا، ثم يتمادى فيجعله مضروبا في طوله. ولعلك تجد ما أجد من الثقل على النفس وأنت تقرأ :

بيوم كطول الدهر في عرض مثله ووجدى من هذا وهذاك أطول

فما الداعي أن تجعل طول الدهر في عرض مثله؟! لا أجد إلا أن أقول: إن التكلف والرغبة في البحث عن البديع أوقعته في هذا، ثم اقرأ الشطر الثاني، وتكرار هذا وهذاك، أما كان يغني أن يجعل له طولا فقط، ثم يقول: ووجدي من هذا أطول.

إن اجتماع العرض مع الطول في حد ذاته ليس عيبا، فإذا اقتضى المقام اجتماعها، ويُنِي الكلام بطريق سهلة، لا تنافر بين أجزائه، ولا غير ذلك مما يقدح في بلاغته، فلا مشكلة، اقرأ قول حندج الذي ذكره المرزوقي:

في ليل صول تناهى العرض والطول ... كأنما ليله بالليل موصول

هل تجد فيه ما وجدت في بيت أبي تمام من التكلف والثقل، فإذا كان المرزوقي ومن تبعه قد جعلوا صنيع الآمدي ظلما، وأن اجتماع هذين الأمرين للدهر، مما هو وارد عن العرب، وكذلك محاولة أبي العلاء حمل الكلام على الاستعارة، هي محاولات من الجميع لإثبات أن ما جاء به أبو تمام له وجه في العربية، ولا أخالفهم في هذا؛ وإنما أقول إذا كان ما جاء به أبو تمام قد ورد في

العربية، فإنه لم يأت بتلك الصورة التي ترى المبالغة يأباها الذوق، ولا يقتضيها السياق.

الشاهد الرابع:

ذكر الآمدي أن من أخطاء أبي تمام قوله:

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَولًا كامِلًا ... ثُمَّ ارعَويتُ وَذَاكَ حُكمُ لَبِيدِ

أَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إطْفَاؤُهَا ... بِالدَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طُوْلَ وُقُوْدِ

معنى البيتين: رحل هؤلاء الأحباب عنه، فبكاهم حولا كاملا، و" حكم لبيد يضْرب مثلا فى الْمَيِّت يُبكى عَلَيْهِ حول؛ لِأَن لبيدا يَقُول: (١)

إِلَى الْحول ثمَّ اسْم السَّلَام عَلَيْكُمَا ... وَمن يبك حولا كَامِلا فقد اعتذر

ثم بيّن أن جمرة اللوعة التي احرقت قلبه حزنا عليهم، تزداد بالدمع توقدا.

هذا المعنى عند الأمدي غير صحيح؛ وجعله من أخطاء الطائي؛ حيث قال:"وهذا خلاف ما عليه العرب، وضد ما يعرف من معانيها؛ لأن المعلوم من شأن الدمع أن يطفئ الغليل، ويبرد حرارة الحزن، ويزيل شدة الوجه، ويعقب الحرارة، وهو في أشعارهم كثيرٌ موجود ينحى به هذا النحو من المعنى؛ فمن ذلك قول امريء القيس:

وإنّ شِفَائي عَبْرةٌ مُهَراقةٌ ... وَهل عِنْد رَسْم دارس مِنْ مُعَوَّل؟

وقول ذي الرمة:

لَعَلّ انحِدَارَ الدّمعِ يُعقِبُ رَاحَةً ... مِنَ الوَجْدِ أوْ يَشفي نَجيّ البَلابِلِ

وقال الفرزدق:

فَقُلْتُ لَها: إنَّ البُكاءَ لَرَاحَةً ... بِهِ يَشْتَفِي مَنْ ظَنَّ أنْ لَا تَلاقِيا

(١)ينظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب٢١٥

وهو كثير في أشعارهم، ما عدل به أحدٌ منهم عن هذا المعنى، وكذلك المتأخرون، هذا السبيل سلكوا، وأبو تمام من بينهم ركب هذا المعنى؛ وكرره في شعره متبعاً لمذاهب الناس؛ فمن ذلك قوله:

نثرت فريدَ مدامع لم تُنظَمِ ... والدمعُ يحملُ بعضَ ثقلِ المُغرَمِ

وقال في موضوع آخر:

واقعاً بالخدود، والحر منه ... واقعٌ بالقلوب والأكباد

وقال أيضاً:

فافزع إلى ذخر الشؤون وعذبها ... فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

وقال أيضاً:

فلعل عينك أن تجود بمائها ... والدمع منه خاذل ومواس

وقال أيضاً:

فلعل عبرة ساعة أذريتها ... تشفيك من إرباب وجد محول

فلو كان اقتصر على هذا المعنى الذي جرت به العادة في وصف الدمع لكان المذهب الصحيح المستقيم. ولكنه أحب الإغراب؛ فخرج إلى ما لا يعرف في كلام العرب، ولا مذاهب سائر الأمم."[1]

مفاد كلامه أن أبا تمام قد خالف ما عليه العرب، وما جرت به العادة؛ فالعادة جارية على أن الدمع يخفف ألم الفراق، وقد ورد ذلك عند المتقدمين منهم والمتأخرين، وساق الآمدي على ذلك شواهد لامريء القيس، وذي الرمة، والفرزدق، بل ولأبي تمام نفسه شواهد في هذا السياق جرى فيها على طريقة السابقين في الكلام.

(١)الموازنة ٢٠٩/١

من هنا خطَّأ الآمدي أبا تمام ، وذكر البيت في موضع آخر من كتابه في حديثه عما ورد عند أبي تمام والبحتري من ترك البكاء على الديار؛ فأورد بيت أبي تمام شاهدا ثم قال:" غلط بين؛ لأنه أتى فيه بما يخالف مذهب أهل الجاهلية والإسلام، والأمم كلها؛ لأنهم مجمعون على أن البكاء راحة من الكرب، وتبريداً لحرارة الحزن، وتخفيفاً من لاعج المصيبة"(١)

ومن معين الآمدي جاء قول أبي هلال؛ حيث قال: ومن الخطأ قوله...وذكر البيت ثم قال:" هذا خلاف ما يعرفه الناس؛ لأنهم قد أجمعوا أنّ البكاء يطفىء الغليل، ويبرد حرارة المحزون، ويزيل شدّة الوجد.

وذكروا أنّ امرأة مات ولدها فأمسكت نفسها عن البكاء صبرا واحتسابا، فخرج الدم من ثدييها؛ وذلك لما ورد عليها من شدّة الحزن مع الامتناع من البكاء.

وقد شهد أبو تمام بصحّة ما ذكرناه، وخالف قوله الأوّل، فقال:

نثرت فريد مدامع لم تنظم ... والدمع يحمل بعض ثقل المغرم

وقال امرؤ القيس :

وإنّ شفائى عبرة مهراقة ... فهل عند رسم دارس من معوّل

وذكر بيتين للفرزدق والبحتري (٢)

كلام أبي هلال بيّن في أن أبا تمام خالف المتقدمين والمتأخرين، وأن العادة جارية بأن البكاء يخفف ألم الوجد، واستشهد على ذلك بما سبق، ولا يخفى أن الكلام بفصه ونصه من معين الآمدي.

(١) الموازنة ٥٦٤

(٢) الصناعتين ١٢٤، ١٢٥

أقول: ما ذهب إليه الآمدي ومن تبعه في النفس شيء منه؛ حيث يجعل نقده قائما على أن صنيع الطائي مخالف لما عليه العرب، ولا أدري أي مزيّة للكلام في اتباع العرب في مثل هذا؟! أهو من القواعد التي يُعاب الإنسان بتركها، فإذا كان إحساس المتكلم قد أنطقه بهذا يُرد ؟ ونقول اجعل بكاءك يطفيء نار الفراق، فما ذنبه إذا كان بكاؤه يزيده حرارة وشوقا؟!

فهل من الإنصاف أن نجعل هذا حكما صائبا نقدم به قولا على آخر؟ فنقول من طبيعة العربي أن البكاء يخفف لوعة الحزن، فماذا نقول لو أن أحدهم يزيده البكاء لوعة؟! إن مثل هذا لا يصح أن يكون قانونا عاما نلزم به الشعراء، وإنما العبرة بما جاء مناسبا للسياق، ومدى تعبيره عن مراد قائله، وقد أفدت في هذا مما قاله الدكتور إحسان عباس (المتوفى: ١٤٢٤هـ)؛ فلم يعجبه صنيع الآمدي، وناقش المسألة مناقشة رائعة، فقال:" ويأوي الآمدي في نقده إلى ركن شديد، يجعله أساساً لنظرته النقدية وهو الرجوع في كل أمر يختلف فيه المتذوقون والنقاد إلى ما تعارفته العرب وأقرته وأُثر عنها، فكما ان على الشاعر ان يلتزم عمود الشعر، فعلى الناقد ان يلتزم عمود الذوق ، فلا معنى للدربة والتمرس وطول النظر في آثار السابقين، فمن هذه الدربة يتكون ذوق الناقد، ومنها يستدل على ما جرت به العادة، فيتمكن من الحكم على إحسان الشاعر أو إساءته بالنظر إلى ما جرت عليه العرب في طريقها؛ ولا يقف هذا الأمر عند حدود اللفظ وما يجوز في الاستعمال وما لا يجوز بل يتجاوزه إلى دقائق المعاني والصور والاخيلة،...ثم ذكر بيت الطائي شاهدا على ذلك، وأعقبه بقول الآمدي ثم رد عليه فقال:" ولسنا نريد أن نقول إن هذا القانون يقتل الإبداع ويهمل اعتبار الطبيعة الإنسانية التي تؤمن بتغير الأذواق وتبدلها، فذلك تحكيم لقواعدنا فيما كان يظنه النقاد القدماء منهجاً صائباً في عصرهم. ولكنا نقول إن هذا القانون متعسف لأنه يفترض اللجوء إلى قاعدة لا يمكن تحديدها. فمن هو الذي يستطيع أن يزعم لنفسه وللناس أنه قد أحاط بما يسمى " طريقة العرب "

في الاستعمالات اللغوية والتصويرية. ولماذا يعمد الآمدي نفسه كلما رأى أثراً قديماً مشبهاً بطريقة أبي تمام إلى الاعتذار عنه وعده من النادر أو الشاذ؟ أليس هذا النادر صادراً عن عربي، تقبله ذوقه واقره خياله – وهو خيال عربي – ولم نسمع أنه طواه استهجاناً أو قابله الناس حينئذ بالاستغراب."[١]

هذا وأخالف الآمدي في مسألة طبيعة العرب هي أن البكاء يخفف لوعة الحزن وألم الفراق، وجعل ذلك أشبه بقانون لا ينخرم، وأن كل من هجره حبيبُه وجب عليه البكاء؛ ليخفف حزنه، حتى وإن كان البكاء يزيد الحزن له، وقد وجدت عند العرب أن البكاء يزيد الحزن كما يخففه، وقد جعل الراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) عنوانا سماه " ازدياد الوجد بالبكاء" وأورد شواهد [٢]للمتنبّي:

وكلّما فاض دمعي غاض مصطبري ... كأن ما فاض من جفنيّ من جلدي

وله:

وإذا حصلت من السّلاح على البكا ... فحشاك رعت به وخدّك تقرع

قال محمد بن أبي زرعة:

فبدت تشبّ بدمعها نار الهوى ... من ذا رأى نارا تشّب بماء

بل جعل الراغب عنوانا آحر " قلّة نفع البكاء"[٣]،وأورد البيت شاهدا عليه، واستشهد أيضا بأبيات منها:

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب١٦٧، الطبعة: الرابعة، ١٩٨٣، الناشر: دار الثقافة، بيروت – لبنان

(٢) ينظر:محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء٢/٨٩،٩٠، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ

(٣) السابق٥٢٧

وقال أراكة:

أعينيّ إن كان البكا ردّها لكما ... على أحد قبلي فلا تتركا جهدا

وقال الموسوي:

وإن غبين القوم من ظاعن الردى ... إذا جاء في جيش الرزايا بأدمع

وقال آخر:

إن الدموع طليعة الأحزان

فماذا نقول في مثل هذه الشواهد؟! فالذين يخفف البكاء لوعتهم، هم الذين يزيد البكاء حزنهم، وعليه فما جاء به أبو تمام لا مشكلة فيه، وأن ما ذهب إليه الآمدي لا وجه له، والمسألة مسألة طبع، فما يخفف ألم إنسان قد يكون سبب حزنه، والبكاء الذي أذهب حزن فلان، قد يكون هو المجدد لحزن غيره.

الشاهد الخامس:

ذكر الآمدي أن أبا تمام أخطأ في قوله:

لما استحر[١]الوداع المحض وانصرمت ... أواخر الصبر إلا كاظماً[٢] وجما[٣]

رأيت أحسن مرئيّ وأقبحه ...مستجمعين لى: التّوديع والعنما[٤]

(١)اسْتَحَرَّ: أَي اشتدَّ وَكَثُرَ.اللسان: حرر.

(٢)كَظَمَ الرَّجُلُ غيظَه إِذَا اجْتَرَعَهُ. كَظَمَه يَكْظِمُه كَظْماً.اللسان:كظم

(٣)الوَاجِمُ: الَّذِي اشتدَّ حُزْنه حَتَّى أَمْسَك عَنِ الْكَلَامِ.

(٤)العَنَمُ: شَجَرٌ لَيِّنُ الأَغصان لَطِيفُها يُشَبَّهُ بِهِ البَنان كأَنه بَنان العَذارى، وَاحِدَتُهَا عَنَمةٌ،وَقِيلَ: هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ لَهُ نَوْرٌ أَحمر تشبَّه بِهِ الأَصابع الْمَخْضُوبَةُ.اللسان : غنم.

ثم بيّن وجه الخطأ فقال:"العنم: شجر له أغصان لطيفة غضة كأنها بنان جاريةٍ، الواحدة عنمة، كأنه استحسن أصبعها واستقبح إشارتها إليه بالوداع، وهذا خطأ في المعنى، أتراه ما سمع قول جرير:

أَتَنْسَى إِذْ تُوَدِّعُنا سُلَيْمَى ... بِفَرْعِ بِشَامَةٍ؟ سُقِيَ البَشامُ

فدعا للبشام بالسقيا لأنها ودعته به؛ فسر بتوديعها، وأبو تمام استحسن إصبعها واستقبح إشارتها، ولعمري إن منظر الفراق منظر قبيح، ولكن إشارة المحبوبة بالوداع لا يستقبحها إلا أجهل الناس بالحب، وأقلهم معرفة بالغزل، وأغلظهم طبعاً، وأبعدهم فهماً."(١)

وذكره الآمدي في موضع آخر؛ في سياق حديثه عن " بكاء النساء المفارقات"؛ حيث ذكر البيتين ثم قال:" استحسن إصبعها، واستقبح إشارتها مودعة، والعنم: شجر له أغصان لطيفة غضة كأنها بنان جارية، والواحدة غنمة.

وهذا خطأ منه أن يستقبح إشارتها بالوداع إليه، أتراه ما سمع قول جرير:

أتنسى إذ تودعنا سليمى ... بفرع بشامة سقى البشام

فدعا للبشام بالسقيا، لأنها ودعته به فسر بتوديعها.

وأبو تمام إنما استحسن إصبعها، واستقبح إشارتها، فما ظنك بمن استقبح إشارة معشوقة إليه عند توديعه، وهذا يدل على أنه ما عرف شيئاً من هذا ولا شاهده، ولا بُلي به."(٢)، ولا يخفى أن مضمون الكلام في الموضعين واحد.

في البيتين السابقين يتحدث الطائي عن مشهد وداع جرى بينه وبين محبوبته؛ هذا المشهد الذي كشف عن أمرين قبيح وحسن؛ فالقبيح وداعها، وهو

(١)الموزانة ٢٣٠/١

(٢)الموازنة ٢٣٠/١

مشهد مكروه عند الجميع، والحسن إشارتها إليه بأصابع تشبه العنم؛ وهو شجر له أغصان لطيفة تشبه بنان الجارية، فاستحسن إصبعها الذي يشبه العنم كما ذكرت، واستقبح إشارتها؛ حيث إنها إشارة مودع.

وما قاله أبو تمام لا يرضى به الآمدي، فعنده أن إشارة الممدوح لا يستقبحها إلا أجهل الناس بالحب، وأقلهم معرفة بالغزل، وأغلظهم طبعا، وأبعدهم فهما.

أقول: كم كان الآمدي قاسيا على أبي تمام في هذا الحكم النقدي، فإن صح له أن أحدا لا يستقبح إشارة المحبوبة، فليس من اللائق وصفه بتلك الصفات، حيث وصفه بغلظة الطبع، وقلة الفهم، والجهل بالحب، على النحو الذي سبق بيانه.

إن ما ذكره الآمدي من أبا تمام استقبح إشارتها، وأن هذا لا يقوله إلا أجهل الناس بالحب وأغلظهم طبعا، لا أساس له؛ فلا أدري على أي أساس بنى الآمدي كلامه، فأبو تمام استقبح التوديع لا إشارتها، بدليل أنه شبه أطراف أصابعها بالعنم، فلو كانت إشارتها قبيحة كما ذكر الآمدي ما استحسن أصابعها وجعلها تشبه العنم.

وبالبحث تبين أنه ليس من طبع أبي تمام استقباح إشارة المحبوبة عند الوداع؛ وقد ذكر ابن وكيع بيت المتنبي:

ما زِلتُ أَحْذر مِنْ وداعِكَ جاهداً ... حتى اغتدى أسفي عَلى التَوْديع

ثم قال :"معنى هذا البيت: أني كنت أحذر الفراق فلما وقع البعد أسفت على التوديع لما نلت فيه من اللذة والعناق كما قال أبو تمام:

منْ يكنْ يَكْره الفراق ... فإني أشْتهيه لموضعِ التسليم

إنّ فيه اعتناقه لوداع ... وانتظار اعتناقه لقدومِ

وكلام أبي تمام أشرح، ومعناه أرجح، فهو أولى بما أخذ عنه." [١]

فأبو تمام كما يكره يوم الفراق، فاحيانا يشتهيه لموضع التسليم فيه، ثم ما ذكره الآمدي من أن أبا تمام خالف السابقين في استقباحه إشارة المحبوبة، أليست تلك الإشارة هي دليل الرحيل، فما كرها لذاتها وإنما لأنها مشعرة بالفراق، حتى ولو لم تكن تلك طريق السابقين عند الوداع، أيحاسب الإنسان على ما يجده من مشاعر في نفسه وعبر عنها، ويعجبني في هذا ما ذكره الشريف المرتضى المتوفى (٤٣٦ هـ)؛ في رده على الْعَبَّاس بْن عمار؛ أحد الأدباء توفي فِي شهر ربيع الأول من سنة أربع عشرة وثلاثمائة، كما ذكره الخطيب في " تاريخ بغد"، وقد خطّأ ابنُ عمار أبا تمام في المعنى السابق، وقال كلاما فيه شيء من كلام الآمدي، فرد الشريف تلك الشبهة وقال:" فوجه حسن قوله: «التوديع والعنم» أنّ التوديع كان بالإصبع التى تشبه العنم، فجمع بينهما بذلك؛ ولا حاجة به إلى ذكر الأنامل المخضّبة على ما ظنّ أبو العباس؛ بل ذكر المشبّه به أحسن وأفصح من أن يقول التوديع والأنامل التى تشبه العنم.

فأما قوله: إن التوديع لا يستقبح؛ وإنما يستقبح عاقبته فخطأ؛ ومطالبة الشاعر بما لا يطالب بمثله الشعراء؛ لأن التوديع إذا كان منذرا بالفراق وبعد الدار وغيبة المحبوب لا محالة إنه مكروه مستقبح.... فمن شأن الشعراء أن يتصرّفوا فى المعانى بحسب أغراضهم وقصودهم، فإذا رأى أحدهم مدح شيء قصد إلى أحسن أوصافه فذكرها، وأشار بها؛ حتى كأنه لا وصف له غير ذلك الوصف الحسن؛ وإذا أراد ذمّه قصد إلى أقبح أحواله فذكرها؛ حتى كأنه لا شيء فيه غير ذلك؛ وكلّ مصيب بحسب قصده.

(١)المنصف للسارق والمسروق منه٣١٧

ولهذا ترى أحدهم يقصد إلى مدح الشيب فيذكر ما فيه من وقار وخشوع، وأن العمر معه أطول، وما أشبه ذلك، ويقصد إلى ذمه فيصف ما فيه من الإدناء إلى الأجل، وأنه آخر الألوان وأبغضها إلى النساء؛ وما أشبه ذلك؛ وهذه سبيلهم فى كل شيء وصفوه؛ ولمدحهم موضعه، ولذمهم موضعه؛ فمن ذمّ الوداع لما فيه من الإنذار بالفراق وبعد الدار قد ذهب مذهبا صحيحا؛ كما أنّ من مدحه لما فيه من القرب من المحبوب والسرور بالنظر إليه– وإن كان يسيرا– قد ذهب أيضا مذهبا صحيحا." [١]

الشاهد السادس:

ذكر الآمدي أن العباس بن عمار عاب قول أبي تمام:

رَقِيقُ حوَاشي الحِلمِ لو أن حِلمَهُ ... بكفَيكَ ما مارَيتَ في أنهُ بُرُدُ[٢]

في هذا البيت يمدح أبو تمام رجلا برقة الحلم، وأن حلمه لو تجسد ورأيته في كفيك، ما شككت أنه برد؛ وهو الثوب الناعم.

وقد خطأ الآمديُّ أبا تمام؛ وذكر أن ما جاء به الطائي مخالف لما عليه العرب؛ فالحلم عندهم لا يوصف بالرقة، وإنما يوصف بالثقل أو الرجحان... أو غير ذلك مما ورد عن العرب، يقول الآمدي مبينا وجه الخطأ في البيت:"هذا هو الذي أضحك الناس منذ سمعوه وإلى هذا الوقت، ولم يزد على هذا شيئاً، والخطأ في هذا البيت ظاهر؛ لأنى ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة، وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة"[٣]

---

(١)أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)٢٥٧،الناشر: دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه) الطبعة: الأولى، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

(٢)البُرْدُ ثَوْبٌ فِيهِ خُطُوطٌ وَخَصَّ بَعْضُهُمْ بِهِ الْوَشْيَ، وَالْجَمْعُ أَبْرادٌ وأَبْرُد وبُرُودٌ.لسان العرب: برد.

(٣)الموازنة ١٤٣/١

كلام الآمدي بيّنٌ في أن الطائي خالف أهلَ الجاهلية والإسلام في هذا المعنى، ثم أخذ يذكر شواهد كثيرة وصف الحلم فيها بالرزانة والرجحان، دون الرقة كما ذهب أبو تمام، منها قول أبي ذؤيب:

وصبرٌ على حدث النائبات ... وحلمٌ رزينٌ وقلبٌ ذكي

وقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانةً ... وتخالنا جنا إذا ما نجهل

وقال أيضاً:

إنا لتوزن بالجبال حلومنا ... ويزيد جاهلنا على الجهال

وكما قال الآخر:

وعظيم الحلم لو وازنته ... بثبيرأو برضوى لرجح

وبعد أن استشهد على ما ذهب إليه من أن الحلم لم يرد عند العرب موصفا بالرقة قال :" ومثل هذا كثير في أشعارهم، ألا ترى أنهم إذا ذموا الحلم كيف يصفونه بالخفة؛ فيقولون: خفيف الحلم، وقد خف حلمه؟...فهذه طريقة وصفهم الحلم، وإنما مدحوه بالثقل والرزانة، وذموه بالطيش والخفة. وأيضاً فإن البرد لا يوصف بالرقة، وإنما يوصف بالمتانة والصّفاقة، وأكثر ما يكون ألواناً مختلفة...ثم قوله "لو أن حلمه بكفيك" كلام في غاية القبح والسخافة"[١]

وقال في موضع آخر:" ولم يرض أبو تمام أن يجعل الحلم رزيناً ثقيلاً على مذاهب الناس كلهم عربهم وعجمهم، ولكن جعله رقيقاً، قال:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه ... بكفيك ما ماريت في أنه برد

فجعله كالبرد، والبرد لا يوصف بالرقة، وكان ينبغي أن يجعله كالهوء!!."[٢]

(١)االسابق ١٤٦/١

(٢)السابق ٥٠/١

هذا ولم ينفرد الآمدي بما ذهب إليه؛ في أخذه هذا الخطأ على الطائي؛ بل سار في ركبه جماعة من أهل العلم؛ منهم القاضي الجرجاني؛ فقد ذكر البيت، وقال:" والبُرد لا يوصف بالرِّقة، وإنما يوصف بالصفاقة والدّقة."[١]

ومن معين الآمدي جاء قول كلٍ من أبي هلال العسكري :" ومن الغلط قول أبى تمام:

رقيق حواشى الحلم لو أنّ حلمه ... بكفيّك ما ماريت فى أنه برد

وما وصف أحد من أهل الجاهلية ولا أهل الإسلام الحلم بالرّقة، وإنما يصفونه بالرجحان والرزانة"[٢]، وقول ابن سنان:" وعيب على أبي تمام قوله:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه ... بكفيك ما ماريت في أنه برد

وقيل: وصف الحلم بالرقة وإنما يوصف بالعظم والثقل والرزانة."[٣]

ولا يخفى أن مضمون الكلام في كل واحد، فكلهم يستقي من معين صاحب الموازنة.

هذا ويمكن مناقشة ما ذهب إليه الآمدي ومن تبعه بما يأتي:

بنى هؤلاء كلامهم على أن ما جاء به أبو تمام؛ من وصفٍ للحلم بالرقة لم يرد عند شعراء العرب لا في الجاهلية والإسلام، وهذا يمكن الرد عليه بأمرين:

أولا: وصف الحلم بالرقة معروف عندهم، وما جاء به الطائي ليس بدعا من القول؛

فقد ذكر أهل العلم أن إِسْمَاعِيل بن صبيح، الْكَاتِب على ديوَان الرسائل لهارون الرشيد، كَانَ كَاتبا حَافِظًا بليغاً، دخل أَعْرَابِي على الرشيد وَإِسْمَاعِيل بن

(١)الوساطة بين المتنبي وخصومه٧٨

(٢) الصناعتين١١٩

(٣)سر الفصاحة٢٦٤

صبيح يكْتب بَين يَدَيْهِ، وَكَانَ أحسن النَّاس خطا وأسرعهم يدا فَقَالَ أرجوزةً فَقَالَ لَهُ الرشيد صف هَذَا فَقَالَ مَا رَأَيْت أطيش من قلمه وَلَا أثبت من حلمه ثمَّ قَالَ:

رقيقُ حَوَاشِي الحلْم حِين تثوره ... يُرِيك الهُوَينا والأمور تطيرُ

لَهُ قَلما بؤسَى ونُعْمى كِلَاهُمَا ... سَحابتُه فِي الحالتَين دَرُورُ

يناجيك عمّا فِي ضميرك لحظُه ... وَيفتح بابَ النُّجْح وَهُوَ عسيرُ

فَقَالَ الرشيد وَجب لَك يَا أَعْرَابِي حق عَلَيْهِ وَهُوَ يقضيك إِيَّاه وَحقّ علينا فِيهِ وَنحن نقوم بِهِ إِلَيْهِ ادفعوا إِلَيْهِ دِيَة الْحر." (١)

فوصف إسماعيل بن صبيح الحلم بالرقة، ولم يعترض أحد عليه.

ثانيا: وهو الأهم؛ أن الكلام برمته قائم على المجاز، فقد جعل للحلم حواشي؛ وهي الأطراف كالتي تكون في طرف الثياب، حتى يُخيل أن الحلم لو وضع في كفيك ما ماريت أنه برود رقيقة الأطراف، إن الخيال في المجاز لا غضاضة فيه، ومن ذا الذي يحجر على مجاز جسد فيه المعقول وجعله محسوسا، وقد أفدت في هذا مما قاله الدكتور عز الدين قباوة:" يستفيد الأديب بلا شك من الصور الحسية التي يلجأ إليها ليحقق المشاعر والمعاني في أشكال ملموسة مؤثرة، كما يحدث في استخدامه للاستعارة مثلا. ولكن أين تقع هذه الصور الحسية التي يكونها الأديب؟ إنها في الحقيقة لا تتمثل إلا في الخيال، فحين يقول أبو تمام في ممدوحه أنه:

رقيق حواشي الحلم، لو أن حلمه ... بكفيه ما ماريت في أنه برد

ويرسم لنا هذه الصورة الحسية للحلم، فإنه لم يرسم لنا صورة تنهض أمام العين كما هو شأن المصور، ولكنها صورة تتمثل في الخيال."(٢)

(١) الوافي بالوفيات٩/٧٥

(٢)الأدب وفنونه – دراسة ونقد٢١،الناشر: دار الفكر العربي

هذا وقد حاول محب الدين الحموي، الدمشقي (المتوفى: ١١١١هـ) أن يدفع اعتراض الآمدي، ويلمس وجها لبيت الطائي فقال:" قَالَ ابْن السَّيِّد مَا قَالَاه لَا يلْزمه لِأَنَّهُ لم يُطلق الرقة على حلمه أجمع وانما أَرَادَ أَنه ترك الْجد الى الْهزْل فى بعض الاوقات وَالْوَقار الى الانبساط وَلذَا تحفظ بِأَن جعل الرقة للحواشى خَاصَّة واذا لم تكن الرقة الا لحواشيه فمعظمه كثيف ."[١]

إن تلك المحاولة تكلف من صاحبها دون داع؛ حيث جعل الرقة لأطراف الحلم فقط، ومعظمه كثيف، إن ما قاله الآمدي أهون مما جاء به محب الدين الحموي، ولو قال ولا وجه لما قاله الآمدي كان أوجز وأليق.

وأحسن منه ما قاله الأستاذ أحمد تيمور؛ حيث ذكر قول أبي هلال والجرجاني، السابق ذكرهما، ثم قال:"قلنا: أما الذي انتقده أبو هلال فصحيح، وأما قول الجرجاني بأن البرد لا يوصف بالرقة فقد نقل التبريزي في شرحه لديوان أبي تمام عن المرزوقي: أن الرقة تستعمل في صفة الفاخر من الثياب وغيره حتى يقال: عندي ثوب أرق من الهواء." [٢]

ذكر المرزوقي أن الرقة تستعمل صفة للثياب، يقال في الثوب: أرق من الهواء، وعليه فما جاء به أبو تمام له وجه في العربية، والكلام برمته قائم على الخيال، ومن ذا الذي يحجر على الخيال، وهو الذي يخرج المعقول مشاهدا للعيون.

إن ما جاء به الطائي لا مشكلة فيه، فلا يمنعه خيال، ولا يتعارض فيما ورد عند العرب، وما ذكره الآمدي ومن نهج نهجه لا مبرر له.

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر٣/٩٢،الناشر: دار صادر – بيروت

(٢) أوهام شعراء العرب في المعاني ٢٧

الشاهد السابع:

ذكر الآمدي أن من أخطاء أبي تمام قوله:

لَو يَعلَمُ العَافُونَ كَم لك في النَّدى ... مِنْ لَذَّةٍ وقَرِيحَةٍ لَمْ تُحْمَدِ

في هذا البيت يمدح أبو تمام رجلا، بأنه يتلذذ ويسعد بصنائع المعروف التي يقدمها للعافين؛ وهم طالبوا معروفه، ولو علم العافون ما يصيبه من تلذذ ما حمدوه على خير يفعله، وهذا المعنى . عند الآمدي ـ خطأ؛ وعلل ذلك فقال:" ويروى " من لذة أو فرحة "[١] أي من لذة وفرح؛ أي ابتداع واستخراج وهذا عندي غلط؛ لأن هذا الوصف الذي وصفه داعيةٌ أن يتناهى الحامد له في الحمد، ويجتهد في الثناء بأن لا يدع حمده، وإنما ذهب إلى أن الإنسان إنما يحمد على الشيء الذي يتكلفه ويتجشمه ويتحمل المشقة فيه، لا على الشيء الذي له بواعث شهوة من نفسه وشدة صبابةٍ إليه ومحبة لفعله، ومن كان غرامه بالجود هذا الغرام فعلى ذلك يجب أن يحمد ويمدح."[٢]

وجه الخطأ عند الآمدي يتمثل في أن الإنسان يُحْمَدُ على الشيء الذي يتكلفه ويتجشمه، فيكون الحمد من أجل ما بذل فيه من مشقة، أما أبو تمام فقد جعل ممدوحه مغرما بما يصنع، وأنه يجد شهوته في ذلك الأمر، فعلام يكون الحمد؟!

وقد صرح الآمدي بخطأ هذا المعنى في موضع آخر من كتابه فقال:" وهذا عندي غلط منه؛ لأن هذا الوصف الذي وصفه به، داعيه إلى أن يتناهى الحامد له في الحمد ويجتهد في الثناء، لا أن يدع حمده، وإنما ذهب إلى أن الإنسان إنما يحمد على الشيء الذي يتكلفه ويتجشمه ويتحمل المشقة فيه

---

(١) ورد البيت برواية أخرى هكذا:

لَو يَعلَمُ العَافُونَ مَالَكَ في النَّدى ... مِنْ لَذَّةٍ أو فَرْحَةٍ لَمْ تُحْمَدِ

(٢)الموازنة ١/٢٤٢

لا على الشيء الذي له بواعث شهوة وشدة صبابة إليه وميل إلى فعله، ومن كان غرامه بالجود هذا الغرام، فعلى قدر ذلك يجب أن يحمد ويمدح، وقد ذكرت هذا في أغاليطه على هذا الشرح."[١]

مضمون الكلام في الموضعين واحد؛ هو أن الممدوح يتلذذ بما يصنعه من معروف، ومثل هذا لا يُحمد؛ لأن الحمد لمن تجشم أمرا، وبذل جهدا، وغالب نفسا، والرجل يصنع هذا متلذذا، فلو علم قاصدوه هذا ما حمدوه.

هذا ويمكن مناقشة الآمدي فيما ذهب إليه بما يأتي:

أولا: خالف الآمدي أهلَ العلم جميعا في عدّ هذا المعنى من أخطاء أبي تمام؛ فلم أجد أحدا . فيما أعلم . ذهب إلى ما ذهب إليه، ولو كان في معنى البيت شيء يقدح في بلاغته وجدت من يبيّنه؛ مما يعني أنه مأخذ غريب لم يخطر على بال أحد.

ثانيا: وهو الأهم؛ المعنى الذي ذكره الطائي من أشرف المعاني التي يُمدح بها إنسان، فغاية المدح، أن يتلذذ صاحب المعروف بما يُعطِي، وقد ذكر أهل العلم أن هذا المعنى الشريف الذي قاله أبو تمام قد استقاه من قولٍ شريفٍ للخليفة المأمون؛ جاء في كتب الأدب"قَالَ المَأمُوْنُ بنُ الرَّشِيْدِ: إِنِّي لأَعْشَقُ العَفْوَ حَتَّى أَظُنَّ أَنِّي لَا أُوْجَرُ عَلَيْهِ. وَهَذَا مِنْ أَشْرَفِ الكَلَامِ وَأَنْبَلِهِ وَأَعْلَاهُ هِمَّةً وَكَرَمًا. فَأَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَنَقَلَهُ إِلَى الجوْدِ." [٢]

جعلوا قول المأمون من أشرف كلام، وأنبله، وأعلاه همة وكرما، وعلى منواله نسج أبو تمام بيته.

---

(١)السابق٣/١٩٦

(٢)الدر الفريد وبيت القصيد ١٩/٩،المحقق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م

ثالثا: رأينا في تلك الدراسة أن جُلَّ الأخطاء التي أخذها الآمدي على أبي تمام، تتمثل في أنه خالف العرب في معانيها، وأن ما يأتي به لم يعرف عنهم لا في الجاهلية ولا الإسلام.

أقول: لو طبقنا هذا الحكم النقدي . الذي أكثر منه الآمدي . على الشاهد الذي معنا، وجدنا بيت الطائي يمضي في ركب ما تكلمت به العرب، فهو على شاكلتهم، واستقى معناه من معينهم؛ وقد ذكره الراغب الأصفهاني ضمن أبيات تحمل هذا المعنى؛ في حديثه عن المسرور بما يُعطيه، فاستشهد بقول أبي تمام: (١)

لَو يَعلَمُ العَافُونَ كَم لك في النَّدى ... مِنْ لَذَّةٍ وقَرِيحَةٍ لَمْ تُحْمَدِ

وقول زهير:

تَرَاهُ إِذا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً ... كأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

وقول الأعشى:

يرى البخل مرّا والعطاء كأنّما ... يلذّ به عذبا من الماء باردا

وقول أبي تمّام:

ونغمة معتف يرجوه أحلى ... على أذنيه من نغم السّماع

فلو عِيب بيت الطائي بسبب معناه، لعابوا بيت زهير والأعشى، بل بلغ من جمال هذا المعنى وشرفه أن:" قال عبد الملك لقوم من الشعراء: أيّ بيت أمدح؟ فاتّفقوا على بيت زهير:(٢)

تَرَاهُ إِذا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً ... كأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

(١)محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء١/٦٨١.

(٢)الشعر والشعراء ١/١٣٩،الناشر: دار الحديث، القاهرة، عام النشر: ١٤٢٣ هـ

وجاء عند أبي منصور الثعالبي:" وقد وقع الإجماع على أن أمدح بيت للعرب قوله[١]:..وذكر بيت زهير، يقول ابن طباطبا:" وَمن الأبْيَاتِ الَّتِي تَخلبُ مَعَانيها للطَافَةِ الكَلاَمِ فِيهَا قَوْلُ زُهَير:..." [٢]وذكر البيت.

فهل غاب عن الآمدي شيوع هذا المعنى على ألسنتهم، واستحسانهم له، ولولا خوف أن يخرج البحث عن قصده لأوردت في هذا المعنى الكثير من الأبيات، التي جعلها أهل العلم من أفضل الشعر وأعذبه، وفي قول زهير والأعشى كفاية.

وختاما أقول: إن المعنى الذي جاء في بيت أبي تمام معنى شريف، وهو من أكرم الكلام وأنبله، ولا مبرر للآمدي فيما قال.

الشاهد الثامن :

ذكر الآمدي أن من أخطأء أبي تمام قوله في وصف فرس:

وَبِشُعلَةٍ[٣] نَبِذٍ[٤]كَأَنَّ فَليلَها ... في صَهوَتَيهِ بَدءُ شَيبِ المَفرِقِ

في هذا البيت يصف الطائي فرسا؛ بأن موضع السرج منه قد ذهب شَعْرُه؛ نتيجة احتكاك السرج به، فنبت مكانه شَعْرٌ ابيض، وهو بياض ليس بمحمود؛ لأنه ليس من أصل خلقته؛ وإنما نتيجة ما أصاب هذا الجزء من

(١)الإعجاز والإيجاز ١٣٠، الناشر: مكتبة القرآن – القاهرة

(٢)عيار الشعر ١٣٩

(٣) والشَّعَلُ: بَيَاضٌ فِي نَاصِيَةِ الْفَرَسِ وَذَنَبِهِ ؛ يُقَالُ فَرَسٌ أَشْعَلُ، وَالْأُنْثَى شَعْلَاءُ.مقاييس اللغة :شعل. المحقق: عبد السلام محمد هارونالناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٤) يقال: فِي رَأْسِهِ نَبْذٌ مِنَ الشَّيْبِ، أَيْ يَسِيرٌ، كَأَنَّهُ الَّذِي يُنْبَذُ لِقِلَّتِهِ وَصِغَرِهِ. مقاييس اللغة:نبذ.

احتكاك بالسرج، فذهب شعره الأصلي، ونبت مكانه هذا الشعر الأبيض المتفرق.

وقد علل الآمدي وجه الخطأ في هذا البيت فذكر:" قوله: " فَليلَها " يريد ما تفرق منها في صهوتيه، والصهوة: موضع اللبد، وهو مقعد الفارس من الفرس، وذلك الموضع أبداً ينحت شعره لغمز السرج إياه فينبت أبيض؛ لأن الجلد ههنا يرق، وأنت تراه في الخيل كلها على اختلاف شياتها، وليس بالبياض المحمود ولا الحسن ولا الجميل؛ فهذا خطأ من هذا الوجه.

وهو خطأ من وجه آخر، وهو أن جعله شعلى، والشعلة لا تكون إلا في الناصية أو الذنب، وهو أن يبيض عرضها وناحية منها، فيقال: فرس أشعل وشعلاء، وذلك عيبٌ من عيوب الخيل، فإن كان ظهر الفرس أبيض خلقةً فهو أرحل، ولا يقال أشعل." (١)

ذهب الآمدي إلى أن أبا تمام أخطأ في المعنى من جهتين:

الأولى: أنه أراد مدح هذا الفرس فعابه من حيث لا يدري؛ فقد وصفه ببياض فليله؛ وهو الشعر الذي ينبت تحت السرج، شبهه بالشيب الذي يظهر في مفرق الرأس، وهذا الوصف مما لا تُمدح به الخيل؛ حيث إن هذا الجزء الذي نبت فيه الشعر نتج عن احتكاك السرج بالجلد، فسقط شعره، وتركه لا شيء عليه من الشعر، فنبت هذا الشعر الأبيض المتفرق، وهو بلا شك مشهد غير لائق بجمال الفرس.

الثانية: أنه جعل فرسه شعلى؛ والفرس الأشعل هو الذي يظهر بياض في ناصيته وذنبه، أما ظهور هذا البياض في تلك المنطقة من الظهر؛ نتيجة احتكاك السرج بالجلد، فلا يسمَّى أشعل، فهو بذلك مخالف لما عليه العرب.

(١)الموازنة ١/٢٥١

وما قاله الآمدي مما تطمئن النفس إليه؛ فهذا الجزء الأبيض الذي ينمو مكان وضع السرج، إنما هي شعرات متفرقة، يظهر من بينها الجلد الذي تآكل شعره، وهي بلا شك صورة شوهت هذا الفرس من حيث لايدري، إنما تمام الجمال فيه إلا تظهر تلك الأشياء فوق ظهره.

والأمر الثاني أن أبا تمام قد خالف ما عليه العرب في وصف الفرس، حيث جعله شعلى، وأهل اللغة على أن الفرس الأشعل ما كان البياض في ناصيته أو ذنبه، فجمع البيت بين قبح الصورة، ومخالفة طريقة العرب في كلامها.

هذا ثم ذكر الآمدي عيبا في البيت الذي بعده فقال:" ومن قبيح وصف شيات [1] الخيل

قول أبي تمام ف يهذا الفرس أيضاً:

مُسْوَدُّ شَطْرٍ مِثْلَ مَا اسْوَدَّ الدُّجي [2] ... مُبْيَضُّ شَطْرِ كابيِضاضِ الْمُهْرَقِ[3]

شطر الشيء: جانبه وناحيته، قال الله عز وجل:﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ البقرة: ١٤٤ أي ناحيته، وقد يراد بالشطر نصف الشيء، يقال: قد شاطرتك مالي، أي: ناصفتك؛ فهذا هو الأكثر الأعم فيما يستعملون، وذلك من أقبح شيات الأبلق على ظاهر هذا المعنى، ولم يرده أبو تمام، وإنما أراد بالشطر ههنا البعض أو الجزء: أي مسود جزء مبيض جزء، فجاء بالشطر لأنها لفظة أحسن من الجزء ومن البعض في هذا الموضع.

---

(١)الشِّيةُ كلُّ لَوْنٍ يُخَالِفُ مُعظم لَوْنِ الْفَرَسِ وَغَيْرِهِ، وأَصله مِنَ الوَشْيِ،وَالْجَمْعُ شِياتٌ. لسان العرب:وشي.

(٢)الدُّجى: سَوادُ الليلِ مَعَ غَيْمٍ، وأَنْ لَا تَرَى نَجْماً وَلَا قمَراً لسان العرب: دجا.

(٣)المُهْرَقُ: الصَّحِيفَةُ الْبَيْضَاءُ يُكْتَبُ فِيهَا، فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ، وَالْجَمْعُ المَهارق، وَقِيلَ: المُهْرَق ثَوْبُ حَرِيرٍ أَبيض يُسْقَى الصمغَ ويُصْقَلُ ثُمَّ يُكْتُبُ فِيهِ. لسان العرب:هرق.

والجيد النادر قول البحتري:

أَوْ أَبْلَقٍ يَلْقَى العُيونُ إِذا بَدا ... مِنْ كُلِّ لَوْنٍ مُعْجِبٍ بِنَموذَجِ

وقد جعله أبو تمام في أول الأبيات أشعل بقوله " بشعلة " ثم جعله هنا أبلق؛ فهذا الفرس هو الأشعل الأبلق على مذهبه في هذا التشبيه، ولا ينكر مثل هذا من ابتداعاته." (١)

وجه التناقض في البيت أن أبا تمام جعل الفرس في البيت الأول شعلى؛ على النحو الذي سبق بيانه، وفي هذا البيت يجعل نصفه أبلق؛ أي أسود، ونصفه أبيض، فكيف يكون الفرس أبلق وأشعل في وقت واحد؟! وجه التناقض يتمثل في أنه جعله شعلى، وهي الشعرات البيض المتفرقة التي نبتت مكان السرج، ثم يأتي في البيت الثاني فيجعل نصفه أسود، ونصفه أبيض. وهذا من الطائي تناقض، كما هو بيّن.

وقد انتصر ابن سنان لأبي تمام، ورد ما قاله الآمدي؛ حيث قال:" ذهب أبو القاسم الآمدي إلى تناقض بيت أبي تمام في صفة الفرس:

وَبِشُعلَةٍ نَبذٍ كَأَنَّ فلولها... في صَهوَتَيهِ بَدءُ شَيبِ المَفرِقِ

مُسْوَدُّ شَطْرٍ مِثْلَ مَا اسْوَدَّ الدُّجي ... مُبْيَضُّ شَطْرٍ كأبيِضاضِ الْمُهْرَقِ

قال: لأنه ذكر في البيت الأول إنه اشعل ثم قال في الثاني: إن نصفه أسود ونصفه أبيض وذلك هو الأبلق فكيف يكون فرس واحد أشعل أبلق ؟ وهذا من أبي القاسم تحامل على أبي تمام لأنه يصف فرساً أشعل ويريد بقوله: إنه مسود شطر ومبيض شطر أن سواده وبياضه متكافئان فلو جمع السواد لكان نصفه وكذلك البياض وهذا الوصف من تكافي السواد والبياض في الأشعل

(١)الموازنة ١/٢٥٣،٢٥٢

محمود حتى أن النخاسين يقولون: أشعل شعرة شعرة فعلى هذا لا يكون شعر أبي تمام من المتناقض"[1]

يرى ابن سنان أن ما قاله الآمدي تحامل منه على أبي تمام؛ وما جاء به الطائي له وجه يخرجه من التناقض الذي قاله الآمدي؛ وبيان ذلك أن أبا تمام يعني لو جمعت السواد الذي تفرق في جسد الفرس كان نصفه، ثم لو جمعت البياض الذي تفرق منه شكَّل نصفه الآخر؛ فكان المجموع أن نصفه أبيض، ونصفه أسود.

أقول: إن ما قاله ابن سنان هو عين التكلف، فمن ذا الذي يفكر هذا الفكر؛ فيجمع ما تفرق من بياضه فيكون نصفا، ثم يجمع ما تفرق من سواده فيكون نصفا آخر، ولو سلمنا للخفاجي بأن هذا مقصد أبي تمام؛ فهو بلا شك مقصد بعيد جدا مما يكد فيه الذهن، وتتعب فيه الخاطر، لتصل في النهاية إلى ما قيمة له، فأي فائدة حصلت لك بعد كل هذا الجهد والفكر الذي تكلفه ابن سنان؟ ما زادك في المعرفة غير أن جعله نصفه أبيض، ونصفه أسود، ومثل هذا النوع من الكلام الذي يحتاج جهدا دون فائدة من ورائه، قال عنه الشيخ عبد القاهر:" وإنما ذُمَّ هذا الجنس، لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذي يجب في مثله، وكَدَّكَ بسُوء الدَّلالة وأودع لك في قالب غير مستوٍ ولا مُمَلَّس، بل خشِنٍ مُضرّس حتى إذا رُمْتَ إخراجَه منه عَسُر عليك، وإذا خرج خرج مُشوَّه الصورة ناقصَ الحُسن، هذا وإنما يزيدك الطلبُ فرحاً بالمعنى وأُنْساً به وسروراً بالوقوف عليه إذا كان لذلك أهلاً، فأمّا إذا كنتَ معه كالغائص في البحر، يحتمل المشقّة العظيمة، ويخاطر بالروح، ثم يُخرج الخرَزَ، فالأمرُ بالضدّ مما بدأتُ به، ولذلك كان أحقَّ أصناف التعقُّد بالذم ما يُتعبك، ثم لا

(١) سر الفصاحة٢٤٢

يُجدي عليك، ويؤرِّقك ثم لا يُورق لك، وما سبيله سبيلُ البخيل الذي يدعوه لؤمٌ في نفسه، وفساد في حسّه، إلى أن لا يرضى بضَعَته في بُخْله، وحِرمان فضله، حتّى يَأْبَى التواضع ولين القول، فيتيه ويشمخ بأنفه، ويسوم المتعرِّض له باباً ثانياً من الاحتمال تناهياً في سُخفه أو كالذي لا يُؤيسك من خيره في أول الأمْرِ فتستريحَ إلى اليأس، ولكنه يُطمِعُك ويَسْحَب على المواعيد الكاذبة، حتى إذا طال العناء وكثر الجهد، تكشَّف عن غير طائل، وحصلتَ منه على نَدَمٍ لتَعبك في غير حاصل..."(١)

وعليه لو كان المعنى كما ذهب إليه ابن سنان، لكان بعيدا غامضا، يحتاج تكلفا وكدا للذهن دون ثمرة، فليس هذا من المعاني التي تتعب خاطرك من أجلها، فهو من المعاني العامة التي يمكن التعبير عنها بأيسر لفظ، وأسهل تركيب. فالصواب في يد الآمدي، وما قاله ليس تحاملا منه على أبي تمام، وما قاله ابن سنان زاد الأمر تكلفا وغموضا.

(١)أسرار البلاغة١٣٩، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر،الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

المبحث الثاني: الاستعارات القبيحة.

تمهيد:

مما هو معلوم أن الاستعارة أحد أركان البيان، وهي عندهم من الأهمية بمكان، وهي كما يقول ابن سنان :" أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها"(١)

وقد اهتم أهل البيان بها اهتماما كبيرا، وحاولوا أن يضعوا لها ضوابط يسير المتكلم عليها، إن مضى عليها حسنت وراقت، وإلا قبحت وساءت .

وهذه الضوابط تتمثل في أن يكون الشبه بين المستعار منه والمستعار له قريبا، فلو كان الشبه بعيدا ذهب حسنها، يقول الآمدي:" وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه، أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه؛ فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه"(٢) ،ويقول ابن رشيق :"إنما يستحسنون الاستعارة القريبة، وعلى ذلك مضى جل العلماء، وبه أتت النصوص عنهم، وإذا استعير للشيء ما يقرب منه ويليق به كان أولى مما ليس منه في شيء"(٣)

فقُربُ الشبه بين الطرفين، ووجود العلاقة التي تصحح إطلاق أحد اللفظين على الآخر، هي شرط صحتها، ودليل حسنها، يقول الشيخ أبو موسى :" وأهم وأصح ما ذكروه في قوة الاستعارة وحسنها أن يكون الشبه بيّنا بين الطرفين ليكون المستعار له صالحا لأن يجعل من المستعار، ويصير فردا من أفراده، وأن يعبر بالثاني عن الأول، فلو كان الشبه بعيدا والعلاقة خفية لالتبس

(١) سر الفصاحة ٢٦٨/١

(٢)الموازنة ٢٦٧/١

(٣)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢٦٩/١

المراد وانطمس طريق الدلالة. "[١]

من هذا الجانب تتبع الآمدي أبا تمام في كثير من استعاراته، ووصفها بالقبح والخطأ ...وغير ذلك من الألفاظ التي تقدح في الاستعارة، وبيّن من خلالها أن أبا تمام جاء باستعارات لا توجد مناسبة بين المعنى المنقول عنه، والمنقول له، أو استعملها على وجه غريب ليس شائعا عند العرب، فخالف بذلك نهجهم فيها، أو اتسمت بالغرابة؛ مما يقدح في بلاغتها.

ولما كانت هذه الشواهد التي تعرض لها الآمدي كثيرة ومتنوعة، فإني تناولت الشواهد التي ادعى الآمدي أنه لم يخالفه أحدٌ فيها، فكانت محل الدراسة؛ لنبين الوجه الأمثل فيها.

أما الاستعارات التي أجمع الكل على قبحها، ولم أجد أحدا خالفه في ذلك تركتها؛ إذ ليس هناك داع لدراستها، فالجميع على استهجانها، فالكلام فيها ترديد لكلام السابقين دون فائدة .

وإنما توجهت الدراسة إلى تلك الاستعارات التي وجدت من يستحسنها، وادعى الآمدي أن الجميع على قبحها، فتناولت هذه الاستعارات بالدراسة، في ضوء ما قاله أهل العلم؛ لنصل إلى الرأي الأمثل فيها.

(١) التصوير البياني ٣٧٢

الشاهد الأول:

ذكر الآمدي أن من قبيح استعارات أبي تمام قوله:

فَضَرَبْتُ الشتَاءَ في أخْدَعَيْهِ[١]. . . ضَربةً غَادَرَتْهُ عُوْداً[٢] ركوبَا

في هذه البيت يصف أبو تمام الشتاء، وكيف استطاع أن يتغلب علي ثلوجه، فتمكن منه وغلبه، فضربه في أخدعيه؛ وهما عرقان في جانبي العنق، حتى صار كالجمل المنقاد لصاحبه، لا يمنعه ركوبه أو الحمل عليه.

والاستعارة هنا مكنية؛ حيث شبه الشتاء بجمل، تغلب الشاعر عليه، وضربه في أخدعيه، فانقاد له، وصار ذلولا.

وهذه الاستعاره عند الآمدي قبيحة؛ حيث قال:" وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصواب. وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه، أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه؛ فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه..." [٣]

ورد هذا البيتُ ضمن ثلاثة أبيات أوردها الآمدي لأبي تمام، جعل فيها للزمان أخدعين، فكان القبح من تلك الناحية على حد قوله، والبيتان الآخران هما:

قول أبي تمام:

يا دَهْرُ قوِّمْ مِن اخْدَعَيْكَ فقدْ ... أضْجَجْتَ هذا الأنامَ مِن خَرُقكْ

---

(١)الأَخدعانِ: عِرْقَانِ فِي جَانِبَي العُنق قَدْ خَفِيا وبَطَنا، والأَخادِعُ الْجَمْعُ. اللسان:خدع

(٢)الْجَمَلُ الْمُسِنُّ فَهُوَ يُسَمَّى عَوْدًا. وَمُمْكِنٌ أَنَّ يَكُونَ مِنْ هَذَا، كَأَنَّهُ عَاوَدَ الْأَسْفَارَ وَالرِّحَلَ مَرَّةً بَعْدَ

مَرَّةٍ.مقاييس اللغة: عود.

(٣)الموازنة ١/٢٦٥

والثاني:

سَأَشْكُرُ فُرْجَةَ اللَّبَبِ الرَّخِيِّ ... ولِينَ أَخَادِعِ الدَّهْرِ الأَبيِّ

البيتان السابقان جعل الشاعر فيهما أخدعين للزمان، وكذلك في البيت محل الدراسة، جعل للشتاء أيضا أخدعين.

ووجه القبح عند الآمدي أن جعل للشتاء أخدعين؛ و إنما تحسن الاستعارة إذا كان هناك شبه بين المنقول عنه والمنقول له، أو كان سببا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة مناسبة، أما على هذا النحو الذي جاء به الطائي فلا توجد مناسبة على النحو الذي أشار إليه الآمدي.

وبالبحث وجدت أهل العلم على استقباح استعارة الأخدعين للزمان؛ بحجة أنه لا وجه يجوّز هذا، ولا أعلم أحدا خالف في ذلك؛ لذا لا أقف مع البيتين السابقين؛ وإنما أقف مع الشاهد الذي بدأت به الكلام؛ والذي جعل فيه الطائي للشتاء أخدعين.

ولم يكن الآمدي بدعا من القوم في استهجان الاستعارة في هذا البيت؛ بل جاء على شاكلته ثلة من أهل العلم، فقد أورد القاضي الجرجاني البيت محل الدراسة، ثم قال عن شعر أبي تمام:" وما تكاد قصيدة من شعره تسلم من أبيات ضعيفة؛ وأخرى غثّة، لاسيما إذا طلب البديع وتتبّع العويص؛ فجاء بمثل قوله..."[(١)]وذكر أبياتا منها هذا البيت، وهي . كما يقول . أبيات ضعيفة، غثة، تتبع العويص فيها.

وعلى شاكلته جاء أبو بكر الباقلاني (المتوفى: ٤٠٣هـ)؛ حيث ذكر قول أبي تمام:

فَضَرَبْتُ الشتَاء في أَخْدَعَيْهِ . . ضَربةُ غَادَرَتْهُ عُوْداًركوبَا

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٧٠

ثم قال:" فهذا وما أشبهه إنما يحدث من غلوه في محبة الصنعة، حتى يعميه عن وجه الصواب، وربما أسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها، حتى استثقل نظمه، واستوخم رصفه، وكان التكلف باراداً، والتصرف جامداً. ...وقال في موضع آخر:" وقالوا: يستحق بهذه الإستعارة أن يصفع في أخدعيه"(١)

حكم الباقلاني على تلك الاستعارة بثقل النظم، وسوء الرصف، والتكلف البارد، والتصرف الجامد، ثم ختم الحديث عنها بأن جعل أبا تمام يستحق أن يُصْفع على أخدعيه؛ بسبب تلك الاستعارة.

ويأتي في قائمة من يستقبح تلك الاستعارة ابن سنان الخفاجي؛ ففي حديثه عن الاستعارة ذكر أنها على ضربين؛ قريب مختار، وبعيد متروك،" فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح والبعيد المطرح إما أن يكون لبعده مما استعير له في الأصل أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك والقسمان معا يشملهما وصفي بالبعد لكن هذا التفصيل يوضح وإذا ذكرت الأمثلة بان القريب في الاستعارة من البعيد وعرف المرضى منها والمكروه وتنزلت الوسائط بينهما بحسب النسبة إلى الطرفين. وهذا الفن قد أورده المحدثون كثيراً وإن كان المتقدمون بدأوا به وممن أكثر استعماله أبو تمام حبيب بن أوس فأورده منه في شعره الجيد المحمود والرديء الذي هو الغاية في القبح. سأذكر في شعره خاصة ما يستدل به على ذلك."(٢)

(١) إعجاز القرآن للباقلاني١١٠، ٢٣٦، المحقق: السيد أحمد صقر،الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م

(٢) سر الفصاحة ١٢٠

ثم ذكر الخفاجي أبياتا، منها هذا البيت محل الدراسة، وقال:" فإن أخادع الدهر والشتاء من أقبح الاستعارات وأبعدها مما استعيرت له وليس بقبح ذلك خفاء. ولا يعرف أبو تمام الوجه الذي لأجله جعل للشتاء والدهر أخادع إلا سوء التوفيق في بعض المواضع."(١)

أن يجعل الشاعر للشتاء أخدعين فهذا من أقبح الاستعارات عند الخفاجي؛ إذ هي بعيدة جدا عما استعيرت له، وليس لأبي تمام وجه فيما جاء به، وهو من سوء التوفيق الذي أصابه.

عرض ومناقشة:

بالنظر فيما قاله الآمدي تجد السبب الذي من أجله استهجن تلك الاستعارة أنه يجعل المناسبة بين الطرفين غير موجودة، وعلى منوال الآمدي نسج الآخرون، فليس عندهم من الأسباب التي تصدك عن البيت، غير ما قاله الآمدي.

أقول: لا أختلف مع السابقين في أن الارتباط بين الطريفين؛ المنقول عنه، والمنقول له شرط في صحة الاستعارة، وأن الجمع بين شيئين لا تناسب بينهما، مما يقدح في بلاغة الكلام.

هذا ولكن الاستعارة في حد ذاتها أسلوب قائم على الخيال، فهي كما قال الشيخ عبد القاهر:"لترى بها الجمادَ حيّاً ناطقاً، والأعجمَ فصيحاً، والأجسامَ الخُرسَ مُبينةً، والمعاني الخفيّةَ باديةً جليّةً، وإذا نظرتَ في أمر المقاييس وجدتَها ولا ناصر لها أعزُّ منها، ولا رَوْنَق لها ما لم تَزِنْها، وتجدُ التشبيهات على الجملة غير مُعْجِبَةٍ ما لم تكُنْها، إن شئت أرتك المعانيَ اللطيفةَ التي هي

(١)سر الفصاحة ١٢٠

من خبايا العقل، كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإن شئتَ لطَّفتِ الأوصاف الجسمانية حتى تعود رُوحانية لا تنالها إلاّ الظنون."[١]

فإذا كان الخيال جعل الشتاء جملا منقادا، فما المانع أن يكون له أخدعان، إن الارتباط بين الطرفين جاء من جهة الانقياد التام للطرفين؛ فالشاعر غلب الشتاء، وانقادت له كما تنقاد الدابة الذلول، وقد جرت العادة أن من يروّد دابة يضربها على أخدعيها في عنقها، ترويدا وتأديبا.

ومن ذا الذي يحجر على خيال الإنسان، فلو كان جعل الأخدعين للشتاء غريبا، لكان استعارة الأظفار للمنية في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظفارَها ... أَلْفَيْتَ كلَّ تَمِيمةٍ لا تَنْفَعُ

غريبا، فإذا كانت العلاقة في قول أبي ذؤيب تتمثل في أن الأظفار هي موضع الفتك والإهلاك من السبع، فإن الأخدعين هما موضع التأديب والترويد من الجمل. بل إن الآمدي نفسه ذكر في موضع آخر من موازنته شيئا يقرب الاستعارة السابقة من الصحة؛ حيث قال:" فأما قوله: " فضربت الشتاء في أخدعيه " فإن ذكر الأخدعين – على قبحهما – أسوغ؛ لأنه قال " ضربةً غادرته عوداً كوباً " وذلك أن العود المسن من الإبل يضرب على صفحتي عنقه فيذل؛ فقربت الاستعارة ههنا من الصواب قليلا"[٢]

وقد وجدت الدكتور شوقي ضيف يستحسن البيت، ويراه طريفا؛ جاء عنده:" والبيت بدون شك طريف؛ إذ جعل أبو تمام الشتاء بثلوجه فرسًا جامِحًا، وجعل انتصار أبي سعيد فيه كأنه ضربة سدِّدت إليه، فقضت على جموحه وشراسته وجعلته سهل القيادة ذلولًا. ولكن الآمدي لا يعجب بالبيت؛ لأن فيه

(١)أسرار البلاغة٤٣

(٢)الموازنة ٢٧١/١

الاستعارة المكنية التي يرى فيها خروجًا على عمود الشعر العربي، وإذا رجعنا إلى البيت في الديوان وجدنا معه أبياتًا رائعة تكمل صور هذا الانتصار الذي رفع به أبو سعيد رأس الدولة العباسية في صراعها مع دولة الروم الشرقية، وهي تجري على هذا النمط البديع.

لقد انصعت والشتاء له وجـ ... ـه يراه الرجال جهمًا قطوبا

طاعنًا منحر الشمال متيحًا ... لبلاد العدو موتًا جنوبا

في ليالٍ تكاد تبقى بخد الشـ ... ـمس من ريحها البليل شحوبا

فضربت الشتاء في أخدعيه ... ضربة غادرته قودًا ركوبا

لو أصخنا من بعدها لسمعنا ... لقلوب الأيام منك وجيبا

وهي قطعة بديعة، تصور أعداء أبي سعيد في الشمال ومعهم الثلوج، وهو يقتحم عليهم من الجنوب معاقلهم فيحطمها حطمًا.

والحق أن هذه الصورة جميعًا التي وقف عندها الآمدي ليست قبيحة؛ إنما كل ما يمكن أن يقال إن طائفة منها غير مألوفة، وأن أبا تمام قد ينسيه تعمقه في مذهبه وشغفه بالصور والتصوير ما قد يكون في بعض رسومه من صور غريبة؛ وهي إن دلت على شيء؛ فإنها تدل على أنه كان يعجب إعجابًا شديدًا بما يتخذه في حرفته من أدوات فنية جديدة، وهي جميعها أدوات كان يريد بها أن يزخرف الفن ويزينه؛ غير أنه كان يقع من حين إلى حين على زخرف غريب غير مألوف فيتشبث به خصومه ويبالغون في الإزراء عليه." (١)

مما هو بيّن أن ما استقبحه الآمدي وغيره في تلك الاستعارة، هو طريف عند الدكتور شوقي ضيف، وفيه جعل الشتاء فرسا جامحا، سدد إليه ضربة على أخدعيه، فقضت على شراسته وجموحه، وجعلته ذلولا، ثم ذكر البيت في

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٢٣٨، الناشر: دار المعارف بمصر

سياق الأبيات التي وردت معه، وقال بأنها قطعة بديعة رائعة، وأن الوجه الذي عابه منه الآمدي هو أن الطائي خرج على عمود الشعر المألوف عند العرب، وهل في البحث عن صور جديدة غير جارية على ألسنتهم، ما يدعو للذم.

وفي النهاية لا أرضى بما قاله الآمدي، وأن الاحتكام إلى أنه خرج عن مألوف العرب، لا ينهض علة لذم تلك الاستعارة، ومن يقرأ استعارات السابقين لا يجد حدا للخيال فيها، والبيت برمته جاء جيد السبك، سهل التناول، لا تعقيد ولا غموض في الاستعارة، بل هي استعارة غاية في الدقة والتصوير.

الشاهد الثاني:

ذكر الآمدي أن من قبيح استعارات أبي تمام قوله:

تروحُ[١] علينا كلَّ يومٍ وتَغْتَدي[٢] ... خُطوبٌ يكادُ الدَّهرُ منهنَّ يُصرَعُ[٣]

في هذا البيت يشكو أبو تمام من الزمان؛ فالنوائب تنزل به في الغداة والعشي، وهي من شدتها يكاد الدهر منها يُصرع.

والاستعارة في البيت مكنية؛ حيث شبه الدهر بإنسان يُصرع، وإسناد الصرع إلى الدهر تخيل وهو قرينة المكنية، وهي استعارة تجسد تلك الأحدث، وتريك الدهر إنسانا غلبته الشدائد وصرعته.

وهذه الاستعارة لم يرض بها الآمدي؛ فقد ذكرها في جملة الاستعارات القبيحة التي وردت عند أبي تمام؛ فقد جاء عنده:" قد عاب الناس عليه قوله: "كأن الدهر منهن يصرع" وهو – لعمري– قبيح."[٤]

---

(١)الرَّواحُ: نقيضُ الصَّباح، وَهُوَ اسْمٌ لِلْوَقْتِ، وَقِيلَ: الرَّواحُ العَشِيُّ، وَقِيلَ: الرَّواحُ مِنْ لَدُن زَوَالِ الشَّمْسِ إِلى اللَّيْلِ.لسان العرب: روح.

(٢)الغُدْوَة، بِالضَّمِّ: البُكْرَة مَا بَيْنَ صَلاةِ الغَداة وطلُوعِ الشَّمْسِ.السابق: غدا.

(٣)الصَرْعُ: الطَّرْحُ بالأَرض، السابق: صرع.

(٤)الموازنة ٢/٢٣٦

وانظر إلى قوله:"وهو . لعمري . قبيح ."، فهو يدل على أن الرأي صادر من نفس واثقة فيما تقول، وأنك لن تجد إلا أن تشاركه الرأي فيما قال.

وقول الآمدي:"قد عاب الناس عليه قوله:..." يدل على أن قبح هذه الاستعارة كان شائعا عند أهل العلم، وبالبحث لم أجد أحدا قبله تعرض بالذم لهذا البيت.

هذا وقد وجدت من معاصري الآمدي من ينهج نهجه؛ حيث ذكره المرزباني (المتوفى: ٣٨٤هـ) في عيوب أبي تمام؛ وذكر قول الخثعمي الشاعر: جُنَّ أبو تمامٍ في قوله:.."[١]، وذكر البيت دون أن يعلق عليه بشيء؛ فلم يبيّن ماذا في البيت جعل صاحبه أهلا للجنون؟!!، وإنما جاء كلاما مرسلا دون بيان.

وعلى شاكلتهما جاء قول أبي هلال العسكري :" وقد أكثر أبو تمام من هذا الجنس اغترارا بما سبق منه فى كلام القدماء مما تقدّم ذكره، فأسرف، فنعى عليه ذلك، وعيب به؛ وتلك عاقبة الإسراف"...وذكر أبياتا منها هذا البيت ، ومما قاله:" وقد جنى أبو تمام على نفسه بالإكثار من هذه الاستعارات، وأطلق لسان عائبه، وأكّد له الحجّة على نفسه؛ واختيارات الناس مختلفة بحسب اختلاف صورهم وألوانهم. "[٢]

ذكر أبو هلال أن أبا تمام قد أسرف على نفسه في مثل هذه الاستعارات الغريبة؛ فأطلق لسان عائبه، وتلك عاقبة الإسراف.

(١)الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ٤٠١

(٢) تاريخ الأدب العربي ٢٨٠/٣، لناشر: دار المعارف، الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ – ١٩٩٥م

أقول: إن الأمر يحتاج رويّة في المعالجة؛ فأبو تمام يشكو من زمانه، وأن المصائب تترى عليه، من شدتها كاد الزمان يُصرع، هذا هو المعنى القبيح الذي أخذه الآمدي على أبي تمام، ومن أجله حكم عليه المرزباني بالجنان، وهو مما أطلق لسان عائب أبي تمام؛ كما قال أبوهلال.

ولكن أي غرابة في أن تجعل الدهر يُصرع؟، والكلام برمته قائم على الخيال والمبالغة، ولقد جرى على ألسنة الشعراء وصف الدهر بمثل هذه الأوصاف؛ فهذا المرار بن منقذ يقول في مرثية يرثى بهَا نَفسه:(١)

كأَنَّني قد رَمانِي الدَّهْرُ عن عُرُضِ ... بِنَافِذَاتٍ بِلاَ رِيشٍ وأَفْوَاقِ(٢)

فالدهر يرمي المرار بِنَافِذَاتٍ لاَ رِيش فيها وأَفْوَاقِ، ثم قال يشكو من الدهر:

وكَساهُ الدَّهرُ سِبًّا ناصِعاً ... وتَحَنَّى الظَّهرُ منهُ فأُطِرْ

وهنا يكسوه سبا ناصعا، ويحني ظهره...فإذا كان الدهر يرمي ويكسو دون أن يعترض أحد، فما المشكلة في أن يُصرع ؟!، إن ما يتكأ عليه الآمدي في جل نقده لاستعارات أبي تمام، أن الطائي خالف السابقين في معانيهم؛ فلم يرد عندهم مثل هذه المعاني، ولكن هل نحجر على الخيال ونلزمه أن يقتفى خيال السابقين، ولا يحيد عنهم؟! والأخيلة والمعاني مما لا حد لها، ثم إن حديث السابقين عن صنع الدهر بهم لا حد له على النحو الذي بيّنت؛ يقول علقمة الحميري:(٣)

إنْ خَرّقَ الدّهْرُ لَنَا جَانِباً، ... سَدّوا الذي خَرّقَهُ، أَو رَقَعْ

---

(١)المفضليات ٣٠٠،تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون الناشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السادسة

(٢)الفُوقُ مِنَ السَّهْمِ: مَوْضِعُ الوَتَر، وَالْجَمْعُ أَفْوَاق وفُوَقٌ.لسان العرب : فوق

(٣)جمهرة أشعار العرب ٥٧٩، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

وقد قال الأوّل:

الدّهر أفناني وما أفنيته ... والدّهر غيّرني وما يتغيّر

والدّهر قيّدني بقيد مرمل ... فمشيت فيه، وكلّ يوم يقصر

إنّ امرأ أمسى أبوه وأمّه ... تحت التّراب أحقّ من يتفكّر

فمثل هذه الشواهد أكثر من تحصى، فإذا كان الدهر بقوته تجسد وفعل بالناس ما فعل، فما المانع أن يتجسد ويخر صريعا أمام النوائب.

هذا ولقد دافع الصولي عن هذا البيت؛ حيث ذكر قول ابن الخثعمي الشاعر؛ الذي عاب البيت:" جن أبو تمامٍ في قوله:

تروحُ علينا كلَّ يومٍ وتَغْتَدي ... خُطوبٌ يكادُ الدَّهرُ منهنَّ يُصرَعُ

أيصرع الدهر؟ قال: فقلت له: هذا بشار يقول:

وما كنتُ إلاَّ كالزمانِ إذا صَحَا ... صَحَوْتُ، وإن ماقَ الزَّمانُ أَمُوقُ

قال: فسكت، قال: فقلت له: وأبوك يقول:

ولَيَّنَ لي دَهْري بأتباعِ جُودِهِ ... فكِدْتُ لِلِينِ الدهرِ أنْ أعقِدَ الدهْرَا

الدهر يعقد؟ قال: فسكت." [(١)]

إن رد الصولي غاية في الدقة؛ فإذا كان أبو تمام قد جُنّ لأنه جعل الدهر يُصرع، فإن أبا الخثعمي قد قال :" فكِدْتُ لِلِينِ الدهرِ أنْ أعقِدَ الدهْرَا "، فهل يلين الدهر لتلك الدرجة حتى كاد أبوه من لينه يعقده؟! فإذا كان أبوه يعقد الدهر بيده، فإن الشدائد تصرعه!!فبهت الخثعمي.

هذا وقد ذكره الدكتور شوقي ضيف ولم يعلق عليه، فلو كان يرى عيبا به ذكره؛ بل بيّن أن أبا تمام قد ألهم ابن الرومي والمتنبي مثل هذه المعاني،

(١)أخبار أبي تمام ٣٧

حيث قال:" وقد ردّد كثيرا فى تضاعيف نسيبه شكواه المرة من الزمن وما ينزله به من الخطوب والكوارث، حتى ليقول ضجرا متأففا منه ومن سياسته الخرقاء

لقد ساسنا هذا الزمان سياسة ...سدى لم يسسها قطّ عبد مجدّع

تروح علينا كلّ يوم وتغتدى ...خطوب كأن الدهر منهن يصرع

وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى أنه هو الذى ألهم ابن الرومى والمتنبى الشكوى من الزمن وما يصبه على الناس من البلاء وما يتصل بذلك من حكم:(١)

في النهاية أقول: إن اعتراض الآمدي ومن نهج نهجه في غير محله، وأن ما جاء به أبو تمام قد استقاه من طريقة السابقين في حديثهم عن الزمان، والكلام برمته قائم على المبالغة والخيال، وقد رأينا الصولي يُسْكتُ من عاب أبا تمام بأن ذكر له ما يشبه تلك الاستعارة من كلامهم، وقد ذكر الدكتور ضيف أن أبا تمام هو الذي ألهم ابن الرومي والمتنبي أمثال هذه المعاني. ومجمل الأمر أن الاستعارة في البيت حسنة معبرة، وليس فيها ما يقدح في بلاغتها، ولو عِيبت هذه الاستعارة عِبنا كثيرا من كلامهم القائم على الخيال والمبالغة.

الشاهد الثالث:

أنزلته الأيّام عن ظهرها من ... بعد إثبات رجله فى الرّكاب

هذا البيت قاله أبو تمام في رثاء غلام، وفيه استعارة مكنية؛ حيث شبه الأيام براحلة، وضع الغلام رجله في ركابها، فاستقر وتمكن، وفجأة أنزلته الأيام من على ظهرها، بعد أن وضع رجله في الركاب.

وهي من الاستعارات القبيحة عند الآمدي؛ ولم يبيّن السبب الذي من أجله قبحت تلك الاستعارة؛ غير أن قال:" وأشباه هذا مما إذا تتبعته في شعره

(١)تاريخ الأدب العربي ٣/٢٨٠

وجدته؛ فجعل كما ترى – مع غثاثة هذه الألفاظ – للدهر أخدعا، ويداً تقطع من الزند، وكأنه يصرع...، وأن الأيام تنزله،...، فالمشكلة عنده في تلك الاستعارة أن جعل الأيام تنزله عن ظهرها، كما جعلها تُصرع في البيت الذي سبق دراسته، ثم حكم على الاستعارة السابقة في جملة استعارات أوردها للطائي، ثم قال عنها،:"؛ وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصواب."(١)

وعلى هذا النحو من الكلام المجمل؛ الذي يحكم به على الكلام بالعيب دون أن يبيّن وجها لذلك، جاء قول أبي هلال؛ حيث أوردها في جملة استعارات رديئة، أوردها لأبي تمام، وقال عنها:" وقد جنى أبو تمام على نفسه بالإكثار من هذه الاستعارات، وأطلق لسان عائبه، وأكّد له الحجّة على نفسه." (٢)على النحو الذي سبق بيانه في الاستعارات السابقة.

أقول: لم يبيّن الآمدي وأبو هلال وجه قبح هذه الاستعارة؛ غير أن عموم الأمر عندهم يتمثل في أن سبب قبح أي استعارة، هو مخالفة السابقين في المعنى؛ أي أن المعنى لابد أن يكون جاريا على لسان السابقين، وقد ناقشنا هذا أكثر من مرة بما يغني الكلام عن ذكره هنا؛ من أن الاستعارة قائمة على الخيال، وليس من الإنصاف أن يَلْزَم المتكلم خيالَ من سبقه، ولا يغادره، فهي من الأمور التي يُغلب عليها الإنسان، والأمر الثاني وجود علاقة بين المعنى المنقول عنه والمنقول إليه، بمعنى قرب وجه الشبه بين الطرفين؛ حتى يصح النقل، وكلما بعد وجه الشبه أو فُقِد عابوا الاستعارة.

(١)الموازنة ١/٢٤٦

(٢)الصناعتين ٣٠٥

إن قرب الوجه بين الطرفين لا غضاضة فيه، بل هو أمر يجب الحرص عليه، وأن قربه مما يكسب الكلام حسنا، وبعده على العكس من ذلك. والاستعارة التي معنا قد تحقق فيها هذا الأمر؛ فهل عاب الآمدي الاستعارة لمجرد أن جعل أبو تمام الأيام راحلة تُرْكب؟ فأي غرابة وأي قبح في هذا؟؛ والكلام برمته قائم على الخيال، فالأيام تقتل وتشيب وتحمل على ظهرها...إلى غير ذلك من المعاني التي قال فيها الشعراء، ثم قرب المعنى عندما قال:" بعد إثبات رجله فى الرّكاب" فأوهمك أن الأيام راحلة، وتلك ركابها، وأنزلت هذا الفتى من على ظهره، بعد أن استقر ووضع رجله في ركابها، فأخذته بغتة.

إن الاستعارة حسنة رائقة، جسدت المعنى، في ألفاظ سهلة، وعبارات رصينة، وخيال مقبول، وقد استحسنها شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)؛ وذلك في حديثه عن شعر الرثاء، حيث قال:" ومن أجود الرثاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه مراثى أبى تمام حبيب بن أوس الطائى... وقال يرثى محمد بن الفضل الحميرىّ:..."[(١)]،وذكر القصيدة والبيت محل الشاهد، فالبيت عند النويري يدخل في أجود الرثاء وأصنعه وأتقنه.

في النهاية أقول: الاستعارة في بيت أبي تمام جاءت حسنة مقبولة، لا تشعر فيها بتكلف، أو غرابة بين طرفيها، ولا وجه لمن عابها.

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب٦/٢٢٤،الناشر: مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، عام النشر: ١٩١٣ م

الشاهد الرابع:

ذكر الآمدي أن من الاستعارات القبيحة قول أبي تمام: [١]

كأنني حين جرَّدتُ الرجاء [٢] لهُ ... غضًّا[٣] صببتُ به ماءً على الزمنِ

في هذا البيت يمدح الطائي رجلا بأنه كفاه شدة الزمان، فجعل زمانه كانه عود غض طري، وأن الشاعر صب الماء عليه، وهي من الاستعارات القبيحة عند الآمدي؛ وقبح هذه الاستعارة يتمثل في أنه جعل الزمان شيئا محسوسا كأنه صب عليه ماء، ثم قال عنها في جملة استعارات للطائي:" وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصواب."[٤]

لم يذكر صاحب الموازنة سببا لقبح الاستعارة، وبعدها عن الصواب، غير أن الشاعر صب الماء على الزمان.

ولم يكن الآمدي وحده من ذم هذه الاستعارة، فعلى نهجه جاء قول القاضي الجرجاني:" فإذا سمعت بقول أبي تمام:....وذكر أبياتا منها البيت السابق، ثم قال:" فاسدد مسامعك، واستغش ثيابك، وإياك والإصغاء إليه، واحذر الالتفاتَ نحوه؛ فإنه مما يُصدئ القلب ويُعميه، ويطمس البصيرة، ويكدّ القريحة." [٥]

(١)الموازنة ١/٢٦٥

(٢)الرَّجَاءُ مِنَ الأَمَلِ: نَقِيضُ اليَأْسِ.اللسان : رجا.

(٣)الغَضُّ: الطَّرِيُّ الَّذِي لَمْ يَتَغَيَّرْ، اللسان: غضض.

(٤)الموازنة ١/٢٤٦

(٥)الوساطة بين المتنبي وخصومه ٤٠

وذكره أبو هلال العسكري في التشبيه البليغ، ثم قال:" ولا يكاد يرى تشبيه أبرد من هذا."[١] ، وذكره أيضا في موضع آخر وقال:" وَهُوَ بيتٌ مستهجن المعرض متكلف اللَّفْظ بعيد الِاسْتِعَارَة."[٢]

وقد استهجنه الأستاذ أحمد الشايب حيث قال:" فأما أبو تمام فكان في كثير من شعره أشد الشعراء تعلقًا بالبديع، وأكثرهم تكلفًا له، ولا سيما الطباق، والجناس، والاستعارة والتقسيم، حتى شوهت شعره، وذهبت بكثير من روعته وجلاله؛ فإذا لاحظنا أنه أضاف إلى ذلك محاولته الإغراب اللفظي تقليدًا للقدماء، ثم اجتلابه المعاني الغامضة، والأغراض الخفية التي احتمل في سبيلها كل غث ثقيل، علمنا سر ما تورط فيه من اضطراب في التعبير، وتعقيد في الأسلوب، حتى صار هذا القسم من شعره إذ قرئ أجهد الفكر، وكذا الخاطر في فهم معانيه، وتصور أخيلته وأغراضه، وما كان هذا سبيل الشعر، ولا أسلوب الفن الجميل، فصار أبو تمام علامة التكلف الثقيل، والصنعة الفاسدة في قسم من شعره ليس بالقليل، ولو أنه جرى مع طبعه، وجانب التكلف، مع معانيه المبتكرة وأخيلته الجميلة، لكان سيد الشعراء غير مدافع؛ فإنك حين تقرأ له ما ورد أول هذا الفصل من الشعر القوي الجميل تعجب كيف يحيد عنه جريًا وراء البديع، وتعلقًا بالصنعة الممقوتة ليقع في مثل هذه الاستعارة القبيحة." [٣]...، وذكر أبياتا منها البيت محل الدراسة.

هذا وعلى الرغم من كل هذا الذم الذي قاله السابقون في هذه الاستعارة، وأنها غاية التكلف، إلا أن الدكتور شوقي ضيف استحسن البيت وبيّن أنه

(١)الصناعتين ٢٥٨

(٢) جمهرة الأمثال ١٣٩/٢،الناشر: دار الفكر – بيروت

(٣) الأسلوب١٨٠،المؤلف: أحمد الشايب،الناشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثانية عشرة ٢٠٠٣

تشخيص رائع، وأخذ على الآمدي ومن تبعه أنهم أكثروا من عيب الطائي دون مبرر، وأن الصواب قد جانبهم في كثير من المواضع؛ يقول الدكتور ضيف:"والحق أن الآمدي لم يكن موفقًا هو وأضرابه من النقاد المحافظين حين وضعوا لصبغ التشخيص قاعدة وأخذوا يناقشون أبا تمام على أساسها، على أن هناك جانبًا في تصوير أبي تمام خلطوا بينه وبين صبغ التشخيص ونقصد جانب: الإغراب في التصوير، إذا كان يغرب أحيانًا فيأتي بصورة غير مألوفة كهذا البيت يقوله في بعض ممدوحيه:

كأنني حين جرَّدتُ الرجاء لهُ ... غضًّا صببتُ به ماءً على الزمنِ

فقد كان الآمدي يستقبح منه أن جعل الزمان كأنه صبَّ عليه ماء؛ وهي ليست صورة قبيحة، هي غريبة ولكن غرابتها لا تنفي تعبيرها عن فكرته وما احتوته من جمال."(١)

كلام الدكتور ضيف بيّن؛ في أخذه على الآمدي ومن تبعه من جهة، ومدحه طريقة أبي تمام والاستعارة السابقة من جهة أخرى.

أقول: إذا كان الدكتور ضيف يقول إنه تشخيص رائع؛ فإن أسلوب الاستعارة برمته قائم على التشخيص والخيال، ولكن لا يصل التشخيص حد الغرابة، وهو ما وقع فيه أبو تمام في تلك الاستعارة، وكم من مرة دافعنا عن تشخيص الطائي وخياله، ولكن لم يكن بتلك الدرجة التي تحتاج كدا للذهن، وإعمالا للعقل، ثم تجد ما وصلت إليه من معنى لا يساوي هذا الجهد الذي بذلته، فقد كان بالإمكان أن يصل لهذا المعنى بأسلوب وألفاظ أيسر مما جاء عليه البيت.

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي٢٣٧

أيضا هناك مسألة مهمة أدت إلى قبح هذه الاستعارة؛ تتمثل في أن العلاقة بين المعنى المنقول عنه والمنقول إليه بعيدة جدة، إن لم يكن لا وجود لها من الأصل، ووجود علاقة بين المستعار منه والمستعار له شرط حسن الاستعارة كما هو معلوم، وفي الشواهد السابقة التي عابها الآمدي كنا نلمح التشابه قائما بين المعنيين، أما هنا فالأمر على خلاف ذلك.

في النهاية أقول: الصواب فيما قاله الآمدي ومن تبعه، وأن أبا تمام قد أغرب في تلك الاستعارة، وأن التكلف بارز فيها، وأن المعنى المفاد لا يساوي شيئا أمام الجهد المبذول في الوصول إليها.

المبحث الثالث: الابتداءات القبيحة

تمهيد:

من المعلوم أن مطلع الكلام مما يجب الاهتمام به، يقول ابن رشيق:" الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره؛ فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة."(١)

فعلى المتكلم أن يتأنق في مطلع كلامه؛ فيجعل أول الكلام دليلا على مراده، جاء عند أبي هلال:" قال بعض الكتّاب: أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان، وقالوا: ينبغى للشاعر أن يحترز فى أشعاره، ومفتتح أقواله؛ مما يتطيّر منه، ويستجفى من الكلام والمخاطبة والبكاء ووصف إقفار الديار وتشتيت الآلاف ونعى الشباب وذمّ الزمان؛ لا سيّما فى القصائد التى تتضمن المدائح والتهانى. ويستعمل ذلك فى المراثى، ووصف الخطوب الحادثة؛ فإن الكلام إذا كان مؤسسا على هذا المثال تطيّر منه سامعه" (٢)

وقال في موضع آخر:" وإذا كان الابتداء حسنا بديعا، ومليحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجىء من الكلام" (٣)

يقول ابن الأثير:" وحقيقة هذا النوع: أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من هذا الكلام إن كان فتحا ففتحا، وإن كان هناء فهناء، أو كان عزاء فعزاء، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني. وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ولم هذا النوع؟"(٤)

---

(١)العمدة ٢١٩/١

(٢)الصناعتين٤٣٧

(٣)السابق٤٣١

(٤)المثل السائر٩٦/٣

ومعظم أهل البيان على أنه يجب على المتكلم . بعد أن يجعل مفتتح كلامه دالا على مراده . أن يخلو كلامه مما يعيبه؛ من نحو الألفاظ التي لا تليق بالممدوح، أو ألفاظ يتطير بها...يقول ابن حجة :" اعلم أنه اتفق علماء البديع، على أن براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة المعاني واضحة في استهلالها، وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة، وأن يكون التشبيب بنسبها مرقصا عند السماع، وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن ومطلعها، مع اجتناب الحشو، ليس له تعلق بما بعده. وشرطوا أن يجتهد الناظم في تناسب قسميه، بحيث لا يكون شطره الأول أجنبيا من شطره الثاني."(١)

ومطلع الكلام موطن التفاضل بين الشعراء؛ فتراهم يقدمون شاعرا على غيره؛ لما للأول من براعة في الاستهلال، والآمدي واحد من النقاد الذين شُغِلوا بهذا الأمر في شعر أبي تمام والبحتري، فذكر للطائي أبياتا كانت مطالعها غاية في الحسن، وأخرى جاءت قبيحة المطلع، وفي هذه الصفحات أدرس تلك الأبيات التي حكم عليها الآمدي بقبح المطلع، وأناقشها مناقشة بلاغية في ضوء ما قاله أهل العلم؛ لنصل للرأي الأمثل فيها.

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب١/١٩، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دار ومكتبة الهلال– بيروت، دار البحار–بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م

الشاهد الأول:

من قصيدته في مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، ومطلعها:

طَلَل [١] الجَّمِيْعُ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيْدَا ... وَكَفَى عَلَى رِزْئِي[٢] بِذَاكَ شَهِيْدَا

هذا الابتداء لم يرض به الآمدي؛ فذكر أنه ابتداء غير جيد؛ حيث قال:" وقوله " وكفى على رزئي بذاك شهيدا " ليس بالجيد، وقد ذكرت معناه فيما تقدم من ذكر معانيه في باب الابتداءات عند ذكر البيت." [٣]

وبالعودة الى المكان الذي ذكره الآمدي فيه، نجد البيت مذكورا في جملة أبيات أوردها في أخطاء أبي تمام، وقد بيّن وجه الخطأ في البيت فقال:" أراد وكفى بأنه مضى حميداً شاهداً على أنى رزئت، وكان وجه الكلام أن يقول: وكفى برزئي شاهداً على أن مضى حميدا؛ لأن حمد أمر الطلل قد مضى، ولس بمشاهد ولا معلوم، فلان يكون الحاضر شاهداً على الغائب أولى من أن يكون الغائب شاهداً على الحاضر.

فإن قيل: إنما أراد أن يستشهد على عظيم رزئه عند من لم يعلمه. قيل: فمن لا يعلم قدر مرزأته التي بعضها ظاهرٌ عليه كيف يعلم ما مضى من حميد أمر الطلل؛ حتى يكون شاهداً على هذا؟[٤]

(١)الطلل: مَا شَخَصَ من الدِّيار، والرَّسمُ مَا كَانَ لاصقاً بِالْأَرْضِ. تهذيب اللغة:طل،المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م

(٢) الرُّزْء، مَهْمُوز: الْمُصِيبَة، جمهرة اللغة: رزو،المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م

(٣)الموازنة ٤٧٤/١

(٤)الموازنة ١/ ٢١٦

لا يخفى على أحد هذا التعقيد الذي اشتمل عليه البيت؛ وما يلزمه من حاجة السامع إلى كد الذهن، وإطالة النظر؛ حتى نصل إلى المعنى المسوق له الكلام، فالمعنى الذي يتحدث عنه الطائي هو الحديث عن الطلل؛ وهو ما تبقى من آثار الديار، وكان بارزا، وأنه قد أصابه ما أصابه من رحيل الأحباب، وكان ما بقي من آثار الديار شاهدا حميدا على ما أصابه، هذا المعنى لا يأتيك بسهولة، وإنما يحتاج مزيدا من الفكر؛ حيث اشتمل البيت على تقديم وتاخير بين أجزائه، مما كان سببا في تداخل معانيه، ومثل هذا لا يُحمد في مطلع الكلام، وإنما خير المطالع ما كان دالا على مراد صاحبه، وجاء سهلا ، لا تعقيد فيه ولا التواء.

وهذا الذي ذكره الآمدي قد وجد من يدافع عنه؛ فقد ذكره ابن سنان في حديثه عن وضع لألفاظ موضعها؛ حيث اشترط أن لا يكون الكلام مقلوباً فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه، وذكر لذلك أمثلة، منها هذا الشاهد محل الدراسة، ثم قال:" وهذا الذي ذكره الشيخ أبو القاسم رحمه الله قول مثله من يتقدم الناس في هذا العلم ودقيق النظر فيه وكشف سرائره."(١)

ولم يكن الآمدي وحده من ذم البيت؛ فقد أشار إليه أبو هلال العسكري، في حديثه عن أنّ البلاغة إنما هى إيضاح المعنى وتحسين اللفظ، وذكر ما يفيد اشتمال البيت على تعقيد، أدى إلى صعوبة فهمه، حيث قال:"سمع أعرابىّ قصيدة أبى تمام :

" **طَلَل الجَّمِيْعُ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيْدَا** "

فقال: إنّ فى هذه القصيدة أشياء أفهمها، وأشياء لا أفهمها؛ فإما أن يكون قائلها أشعر من جميع الناس، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه.

(١) سر الفصاحة ١١٥

ونحن نفهم معانى هذه القصيدة بأسرها؛ لعادتنا بسماع مثلها، لا لأنّا أعرف بالكلام من الأعراب. "[١]

فهذا الأعرابي قد أجمل ما اشتمل عليه الكلام من خفاء؛ فإما أن يكون قائله اشعر الناس، ولا يستطيع أحد أن يصل إلى مراده، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه، وكلامه دون كلامهم.

هذا وعلى الرغم من هذا التعقيد الذي جاء في البيت إلا أني وجدت الحصري القيرواني يدافع عنه، و ذكر أنه لا يستطيع أحدٌ أن يبتدأ شعره بمثله؛ ففي حديثه عن بعض أبياتٍ أوردها لأبي تمام والبحتري قال:" وهل يستطيع أحد يبتدئ بمثل ابتدائه؟.."[٢]، وذكر البيت. كلام القيرواني مرسل؛ فلم يبيّن وجه الحسن فيه، فما الذي فيه من مزيّة تُعْجِزُ الآخرين عن الإتيان بمثله.

في النهاية أقول: ما ذكره الآمدي ومن تبعه في محله؛ فالبيت غاية في الغموض، وإذا كان تعقيد الكلام وغموضه مذموما، فوروده في مطلع الكلام أشد ذما، فمثل هذه البداية كافية أن تصدك عن القصيدة كلها، وقد ذكرت في التمهيد لهذا المبحث أن مطلع الكلام مما يجب الاهتمام به؛ لأنه أول ما يقرع السمع، وهو أدعى لقبول الكلام.

هذا وما ذكره الحصري القيرواني كلام مرسل قائم على المبالغة، وليس هناك ما يويّده، وما هي إلا محاولة منه لتفضيل الطائي على البحترى، و لو جاء بمطلع حسن غير هذا، وهو كثير في شعر أبي تمام كان أولى.

(١)الصناعتين ١١

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ٣/٦٦٠

الشاهد الثاني:

ما عَهِدنا كَذا نَحيبَ[1] المَشوقِ ... كَيفَ وَالدَّمعُ آيَةُ المَعشوقِ

هذا البيت مطلع قصيدة يمدح فيها الطائيُّ أبا سعيد محمد بن يوسف، وقد بدأ كلامه بالتشبيب؛ فقال لم يكن عهدي نحيب المشوق؛ ويعني به نفسه، والنحيب هو البكاء بصوت عال، ثم التمس العذر لبكائه، وَلِمَ لا يبكي؟ والدمع قد سال من معشوقه! فأخذ يبكي لبكائه.

وهذا المعنى الذي بدأ به الطائي كلامه لم يعجب الآمدي؛ حيث قال:" هذا بيت رديء جداً، وقد ذكرت ما فيه في باب ما ذكرناه له في وسط الكلام في تعنيف الأصحاب على الوقوف على الديار، وهذا البيت ابتداء، وإنما ذكرته هناك لأن معناه يتضح بالأبيات التي بعده؛ فجعلته في ذلك الباب."[2]

وبالعودة إلى الموطن الذي ذكر فيه البيت، نجد الآمدي يقول :" ومن رديء ما جاء في هذا الباب، قوله:

ما عَهِدنا كَذا نَحيبَ المَشوقِ ... كَيفَ وَالدَّمعُ آيَةُ المَعشوقِ

كأنه يقول لنفسه: ما عهدنا كذا نحيب المشوق؛ أو أن يكون حكى قول أصحابه، وأراد أن يقول: بكيت فانتحبت، فقالوا: ما عهدنا كذا نحيب المشوق، وأراد أن يقول: فقلت لهم: كيف والدمع، فاقتصر على حكاية كلامهم وجوابه، وأسقط قالوا؛ فقلت: وكان الأجود أن يقول: آية العاشق، لأن من علامات المحب البكاء، وقال: آية المعشوق، أي أن دمعي علامة لمن أحبه في أنى عاشقه، وهذا لا يكون جواباً صحيحاً عما أنكروه عليه من شدة نحيبه، لأنه لم

(١)النَّحِيبُ: البكاءُ بصَوْتٍ طَويلٍ ومَدٍّ.اللسان: نحب.

(٢)الموازنة ٤٦٧/١.

يبك ليعلمها أنه عاشق، وإنما بكى من شدة وجده، وإنما كان يصح أن يكون جواباً عنه أن لو كان صدر البيت:

حسبتني في الحب غير صدوق

فيقول:

كيف والدمع آية المعشوق

أي كيف لا أكون صدوقاً في حبي ودمعي آية لك يشهد بأني محب. فهذا كان وجه هذا. وعلى أن آية العاشق ههنا أيضاً أجود.

والدليل على أن قوله:

ما عَهِدنا كَذا نَحيبَ المَشوقِ

إنما هو حكاية كلام من عنفه على النحيب أنه وصله بأن قال: (١)

فأقلا التعنيف إن غراماً ... أن يكون الرفيق غير رفيق

مفاد كلام الآمدي أن الشطر الثاني " كَيفَ وَالدَّمعُ آيَةُ المَعشوقِ" ليس منسجما مع مطلعه؛ حيث إن أبا تمام يحكي كلام من أنكر عليه البكاء، وأصل الكلام بكيت فانتحبت، فقالوا: ما عهدنا كذا نحيب المشوق، فكان الأجود أن يأتي الجواب: كيف والدمع آية العاشق؛ لأنه هو العاشق الذي يبكي، ثم إن بكاء المعشوق لا يدل على وجد العاشق، وإنما قد يفهم منه غير ذلك؛ كأن يبكي مما لاقه من عاشقه، والمعنى المسوق له الكلام هو بكاء العاشق لا المعشوق.

وهذا الذي لم يرض به الآمدي قد استحسنه غيره؛ حيث ذكر الحصري القيراوني أن جماعة تناولوا معاني أبي تمام والبحتري؛ فإذا ببعضهم يقدمون أبيات أبي عبادة البحتري، فرد عليهم أحد الجالسين؛ فذكر أبياتا لأبي تمام

(١)الموازنة ٥٤٥/١

كانت أجود مما قال البحتري، حتى قال:" هل هذه المعانى إلا عون مفترعة، قد تقدم أبو تمام إلى سبك نضارها، وافتضاض أبكارها، وجرى البحترى على وتيرته فى انتزاع أمثالها واتباعها،... هل يستطيع أحد أن ينسب هذا أو شيئا منه إلى السّرق والاحتذاء؟ وهل يستطيع مماثلته بشىء من شعر البحترى، أو أشعار المحدثين فى عصره ومن قبله؟

فعىّ عن الجواب قصورا، وأحجم عن المساجلة تقصيرا، وحكمت الجماعة لى بالقهر، وعليه بالنصر، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبى تمام فى صنعة البديع واختراع المعانى على جميع المحدثين. وكان يوما مشهودا."[1]، وكان من جملتها هذا البيت محل الدراسة.

هذا البيت وأشباهه عند القيرواني من المعاني المخترعة، لا يستطيع أحد مماثلته، لا ممن عاصره ولا جاء قبله.

وفي النهاية: أقول إننا بصدد قولين مختلفين أمام هذا البيت؛ قول يستقبحه، ويجعله من البدايات غير اللائقة، وآخر يستحسنه ويجعله من المعاني المخترعة التي لم يصل إليها سابق ولا لاحق.

هذا ولست مع ما قال الآمدي، ولا أرضى بكل ما قال القيرواني؛ فإذا كان صاحب الموازنة يرى أن الشطر الثاني لا ينسجم مع الأول، فإن هذا يمكن الرد عليه، فالشاعر من شدة عشقه انتحب بالبكاء لما بكى معشوقه، وهذا غاية العشق، أن يجعل بكاء معشوقه دليل عشقه؛ فيبكي لبكائه ويسعد لسعادته، فهو ابتداء لا مشكلة فيه.

وما قاله القيرواني تجد رغبة منه في الانتصار لأبي تمام على حساب البحتري؛ حيث يجعله من المعاني البكر المخترعة، التي لا يقدر عليها سابق

(١) ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب ٣/٦٦٠

أو لاحق، فالبيت وإن كان حسنا، لكنه لا يصل تلك الدرجة التي أشار إليها القيرواني؛ إذ إنه من المعاني السهلة التي لا تستحق كل هذه الإشادة، وللطائي معان أفضل من هذه بكثير، ولغير الطائي بدايات أفضل من هذه بكثير، فكان يكفي الحصري أن ينوه بحسنه دون التعريض بغيره.

الشاهد الثالث:

في حديث الآمدي عن"إقواء الديار وتعفيها"، استشهد بعدة أبيات لأبي تمام؛ ومنها هذا البيت:

شَهِدْتُ لقَدْ أَقْوَتْ[١] مَغَانيكُمُ[٢] بَعْدِي ... وَمَحَّتْ كما مَحَّتْ وشائِعُ[٣] مِن بُرْدِ[٤]

هذا البيت مطلع قصيدة يمدح فيها موسى بن إبراهيم الرافعي ويعتذر إليه، وقد بدأ مدحه بالحديث عن أن الديار قد خلت من أهلها، ومحيت معالمها؛ كما محيت وشائع من برود؛ بمعنى محيت معالمها كما محيت عن الخشبة التي يغزل عليها الخيط، والبرود هي الثياب الملونة.

وهذا البداية لم تعجب الآمدي؛ حيث قال:" وهذا بيت ردئ معيب؛ لأن الوشيعة والوشائع هو الغزل الملفوف من اللحمة التي يدخلها الناسج بين السدى، والبرد الذي قد تمت نساجته ليس فيه شيء يسمى وشيعة ولا وشائع، وقد ذكرت هذا في أغاليطه."[٥]

---

(١)أَقْوَت: أَقْوَتِ الدارُ إذا خَلَتْ مِنْ أَهلها. اللسان: قوا

(٢)المَغَانِي: هِيَ المواضعُ الَّتِي كَانَ بِهَا أَهْلُوها.اللسان: غنا.

(٣)الوَشِيعَةُ: خَشَبَةٌ أَو قَصَبَةٌ يُلَفُّ عليْهَا أَلْوانُ الغَزْلِ منَ الوَشْيِ وغَيْرِه،والجَمْعُ: الوَشائِعُ.تاج العروس: وشع.

(٤)البرد: الثوب المخطّط.

(٥) الموازنة ٤٧٧/١

مما يجب التنبيه إليه أن سبب قبح البيت عند الآمدي ليس لأنه من المعاني المستكرهة عند الجميع؛ حيث لم يبدأ مدحه بشيء يُتطير منه، ولا بمعنى غير لائق، ولا جعل مطلع كلامه لا يمت إلى هدفه؛ بل المشكلة تكمن في أن جعل الدار خالية كما خلت الخشبة التي يُغزل عليها مما يكون عليها من خيوط، وهذا لا إشكال فيه، ولكن جعل الوشيعة . الخشبة التي سبقت الإشارة إليها . تخلو من برود؛ وهي الثياب المخططة، والوشائع لا يكون منها برود، وعليه فالخطأ راجع إلى المعنى.

أقول: ربما أخطأ الطائي في المعنى، ولكن لا يصل الى درجة القبح والرداة التي قال بها الآمدي، والكلام تشبيه رائع؛ حيث بيّن حال الدار وقد تركها أحبابها، فصارت كالمغزل الذي ذهبت عنه خيوطه.

ولم يدع الآمدي فرصة لأحد ينتصر بها للطائي؛ حيث ورد بيت عند ذي الرمة وكثير، ما يفيد أن البرود من الوشائع، التي هي محل الذم عند الطائي، حيث قال: "جعل الوشائع حواشي البرد أو شيئاً منها، وليس الأمر كذلك، إنما الوشائع غزلٌ من اللحمة ملفوفٌ يجره الناسج بين طاقات السدى عند النساجة قال ذو الرمة:

به مَلْعَبٌ من مُعْصِفاتٍ نَسَجْنَهُ ... كنَسْجِ اليَمانِي بُرْدَهُ بالوَشائِعِ

فأما قول كثير:

ديارٌ عفت من عزة الصيف بعدما ... تجدّ عليهن الوشيع المنمنما

فإنما أراد بالوشيع هنا سد به الخصائص بين الشيئين، وهو من وشائع الغزل مأخوذ، والمنمنم: مأخوذ من النمام، أي بعد ما كانت هذه الديار تجد بالوشيع، أي: يخصص به خيامها. ومثل أبي تمام لا يسوغ له الغلط في مثل هذا؛ لأنه حضرى، إنما يسامح في ذلك البدوى الذي يريد الشئ ويلم يعاينه

فيذكر غيره؛ لقلة خبره بالأشياء التي تكون بالأمصار. وأما أبو تمام فليست هذه حاله، ما جهل هذا، ولكنه سامح نفسه فيه"(١)

هنا يلتمس الآمدي العذر لذي الرمة وكثير؛ باعتبار أنهما بدويان، فليس لهما من الإحاطة بالأشياء ما للحضري، فلا سماح له فيما قال.

أقول: هذا من الآمدي تناقض في القول؛ فما المانع أن يكون أبو تمام ساير البدويين في كلامهم في هذا الشاهد؟! وقد ذكرت في شواهد سابقة أن الآمدي كان يعيب على أبي تمام أنه يخالف طريقة السابقين في خيالهم ومعانيهم، وها هو ذا يقتفي أثرهم فلا يرضي الآمدي، فإن جنح به الخيال، وجاء بجديد ذُم؛ لأنه خالف السابقين، وإن سايرهم واقتدى بهم، غُفِرَ لهم ذلتهم لبدويتهم، وردت على الطائي لكونه حضريا، فهذا من التناقض في الحكم.

هذا وقد ورد في كتب أهل العلم ما يفيد استحسانهم هذا البيت؛ حيث جاء في الأغاني:" جاء دعبل إلى الحسن بن وهب في حاجة بعد موت أبي تمام فقال له رجل في المجلس يا أبا علي أنت الذي تطعن علي من يقول

شَهِدتُ لقد أقوتْ مغانيكُمُ بعدِي ... ومَحَّتْ كما محت وشائعُ من بُرْدِ

وأنجدتم من بعد إتهام داركُمْ ... فيا دمعُ أنجدنِي على ساكني نجدِ

فصاح دعبل أحسن والله وجعل يردد فيا دمع أنجدني على ساكني نجد ثم قال رحمه الله لو كان ترك لي شيئا من شعره لقلت إنه أشعر الناس"(٢)

وذكر الخبر في موضع آخر:" ثم دخل دعبل على الحسن بن وهب فقال له يا أبا علي بلغني أنك قلت في أبي تمام كيت وكيت فهبه سرق هذه القصيدة كلها وقبلنا قولك فيه أسرق شعره كله وأتحسن أنت أن تقول كما قال... . وذكر

(١)الموازنة ١/١٩٢،١٩١

(٢)الأغاني ١٦/ ٤٣٠، الناشر : دار الفكر – بيروت، الطبعة الثانية، تحقيق : سمير جابر

البيتين . فانخزل دعبل واستحيا فقال له الحسن الندم توبة وهذا الرجل قد توفي ولعلك كنت تعاديه في الدنيا حسدا على حظه منها وقد مات الآن فحسبك من ذكره فقال له أصدقك يا أبا علي ما كان بيني وبينه شيء قط إلا أني سألته أن ينزل لي عن شي استحسنته من شعره فبخل علي به وأما الآن فأمسك عن ذكره فجعل الحسن يضحك من قوله واعترافه بما اعترف به"[١]

فالبيتان من جودتهما لا يستطيع مَنْ تَحاملَ على أبي تمام أن يأتي بمثلهما، ثم ذكر دعبل أنه ما دفعه إلى ذم أبي تمام أنه أراد أن يهبه ويترك له شيئا من هذا الشعر الحسن، ليكون اثرا من بعده، فضن الطائي بشعره، أن يقوله وينسب لغيره، وهذا دليل أن كثيرا مما ذُمَّ به أبو تمام كان الحقد من أسبابه.

وعلى هذا النحو من الاستحسان جاء قول ابن حازم القرطاجني، (المتوفى: ٦٨٤هـ)؛ ففي حديثه عن ضرورة العناية بمطلع الكلام، ذكر أن البيت الثاني من القصيدة يجب أن يكون على شاكلة الأول من الحسن والبراعة، فيجب التأنق فيهما معا، حيث قال:" فأما ما تجب العناية بالتأنق فيه على الوجه المختار فتحسين المبدأ والتخلص. وأما ما تتأكد به العناية ولا سيما عند من أخذ بمذهب أيمة المحدثين فتحسين البيت التالي للبيت الأول من القصيدة ليتناصر بذلك حسن المبدأ ومثل هذا قول أبي تمام: [٢]

شهدتُ لقد أقْوتْ مَعالمكم بَعدِي ... ومَحْت كَمَا مَحتْ وشائعُ مِنْ بُرد

وأنجدتُمُ من بعد إتهام داركم ... فيا دمع أنجدني على سَاكِني نجدِ

فالبيتان عند القرطاجني اجتمع لهما الحسن.

(١)الأغاني ١٢٤/٢٣

(٢)منهاج البلغاء وسراج الأدباء٩٩

وفي النهاية أقول: ما ذكره الآمدي لا وجه له، بل هناك تناقض في أحكامه؛ فمرة يعيب على الطائي أن يجنح في معانيه بعيدا عن البدويين، وأخرى يعيب عليه ما تكلم به البدويون، والبيت برمته سهل المأخذ، جيد السبك، لطيف المعنى.

الشاهد الرابع:

في حديث الآمدي عن التسليم على الديار ذكر قول أبي تمام:

سلّم عَلَى الرَّبْعِ[١] من سَلْمَى بِذِى سَلَمِ ... عَلَيه وَسْمٌ مِنَ الأيَّامِ والقِدَمِ

البيت مطلع قصيدة يمدح بها مالك بن طوق؛ وعلى عادة السابقين بدأ الطائيُّ مدحه بطلب السلام على الربع؛ وهي محلٌ إقامة محبوبته سلمى، ذاك الربع الذي تغيرت معالمه، وصار عليه وسمٌ من الأيام والقدم.

وهذه البداية لم تعجب الآمدي؛ حيث قال:" وهذا ابتداء ليس بالجيد؛ لأنه جاء بالتجنيس في ثلاثة ألفاظ، وإنما يحسن إذا كان بلفظتين، وقد جاء مثله في أشعار الناس، والردئ لا يؤتم به."[٢]

ذكر صاحب الموازنة أنه ابتداء ليس بالجيد؛ وقد بين علة ذلك بأن البيت اشتمل على جناس ورد في ثلاثة ألفاظ، وإنما يحسن الجناس عنده إذا ورد في لفظين فقط.

ولم يكن الآمدي وحده من ذم البيت؛ فقد عده ابن سنان الخفاجي قبيحا؛ جاء ذلك في سياق حديثه عن التجنيس؛ حيث ذكر أبياتا لأبي تمام جناسها حسنٌ، وأخرى جناسها قبيح، منها هذا البيت، ثم قال: "ومن قبيح تجنيسه قوله:...وذكر أبياتا له، منها هذا البيت، ثم قال:" وله من هذا الجنس أبيات

(١)الرَّبْعُ: المَنْزِلُ ودارُ الإقامة. ورَبْعُ الْقَوْمِ: مَحَلَّتُهم.اللسان: رع.

(٢)الموازنة ١/ ٤٤١

كثير والسبب في ذلك أنه أحب الإكثار ولم يقنع باليسير الذي يسمح به خاطره ويقع بغير تكلف ولا تعمل."[١]

عند الخفاجي جناس أبي تمام فيه تكلف، لم يجد به الخاطر، وأنه أحب الإكثار من هذا النوع، فخرج على هذا النحو من القبح.

وعلى نهجهما سار القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ)؛ حيث ذكر أن القاضي الفاضل سمع بيت أبي تمام السابق:" فاشمأزّ من هذا النّمط طبعه، واقشعرّ منه فهمه، ونبا عنه ذوقه، وكاد سمعه يتجرّعه ولا يكاد يسيغه"[٢]

لم يبيّن القلقشندي سبب القبح الذي ورد في البيت، حتى جعل القاضي يشمأزّ طبعه منه، وكاد يسمعه ولا يكاد يسيغه...

أقول: إذا كان الآمدي ومن تبعه لم يعجبهم البيت، فإن ثلة من أهل العلم على النقيض من هذا؛ فالبيت عندهم غاية في الحسن.

منهم ابن حجة الحموي (المتوفى: ٨٣٧هـ)؛ ففي حديثه عن الجناس ذكر البيت ، واستحسنه، حيث قال:" وما أحلى قول القائل: سلّم عَلَى الرَّبْعِ من سَلْمَى بِذِى سَلَمِ..."[٣]

وقد استحسنه أيضا الدكتور عبد الله المجذوب (المتوفى: ١٤٢٦ هـ)؛ حيث قال :" وقد كان أبو تمام ناقدًا حصيفًا. فأدرك بثاقب فكره ما يصاحب أمثال رامة والأجرع من جو حان مفعم بالعواطف الغامضة. وإلى إشاعة العواطف الغامضة كان يعند هو في مطالعه النسيبية وبما بمنزلتها. ولذلك لم

(١)سر الفصاحة ١٩٦

(٢)صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ٢/٢٧١

(٣)خزانة الأدب وغاية الأرب ١/٦٥

يكـن يجـد أنسـب، لتقويـة هـذه المطـالع، مـن أن يـزاوج بـين الجنـاس التـام أو الناقص، وأسماء المواضع الجريرية، كأن يقول:(١)

أرامة كنت مألف كل ريم ... لو استمتعت بالأنس المقيم

وأن يقول:

سلّم عَلَى الرَّبْعِ من سَلْمَى بِذِى سَلَمِ ... عَلَيه وَسْمٌ مِنَ الأيَّامِ والقِدَمِ

يرى الدكتور المجذوب أن أبا تمام كان موفقا عندما يذكر الأماكن في مطلع شعره؛ من نحو رامة والأجرع...وكان التوفيق مصاحبا للطائي عندما زواج بين الجناس التام والناقص الذي ورد في البيت.

وعلى هذا النحو من الاستحسان جاء قول العلوي صاحب "نضرة الإغريض في نصرة القريض"؛ ففي حديثه عن التجنيس الحسن قال:"وهو أن يأتي الشاعرُ بكلمتين مُقترنتين متقاربتين في الوزْنِ، غير متباعدَتَيْن في النظم، غير نافرتين عن الفهْم، يتقبّلُهما السّمْعُ، ولا ينبو عنهما الطبعُ. فإن زادَ في التجنيس فثلّثَ كان ذلكَ فساداً في الصّنعةِ لأن الكلمتين تتقابلان وتنفردُ الأخرى بغير قرينة، وربما استحسنَ قومٌ من ذلك شيئاً لكثرة استعمالِه وأُنس السّمْعِ به، كقول الطائي:

سلّم على الرَّبْعِ من سَلْمَى بذي سَلَمِ

فقوله: سلّم وسَلَم كلمتان متقابلتان، وانفردتْ لفظةُ سَلمي بغير قرينةٍ وإنما لأُنسِ السّمعِ باسم سَلْمى والسّلام والسَّلَم صار كأنه شيءٌ واحدٌ"(٢)

(١)المرشد إلى فهم أشعار العرب ١٠٠،١٠١/٢،الناشر: دار الآثار الإسلامية– وزارة الإعلام الصفاة – الكويت، الطبعة: الثانية سنة ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م

(٢)نضرة الإغريض في نصرة القريض١٠

من خلال هذا العرض يتبين أننا بصدد قولين مختلفين في هذا البيت؛ وعلة قبحه عند الآمدي ومن تبعه هو ذلك الجناس الذي اشتمل عليه، وقد قبح الجناس عنده بسبب أنه ورد في ثلاثة ألفاظ، وكان يحسن لو جاء في لفظتين.

أقول: الجناس يُحمد إذا جاء دون تكلف، وإنما جاء عفو الخاطر، وهو من البلاغة بمكان إذا جاء على النحو الذي أشرت إليه.

وما قاله الآمدي بأن القبح جاء من اشتمال البيت على ثلاثة ألفاظ متجانسة، وأن خير الجناس إذا ورد في لفظتين، لا أرضي به؛ حيث جعل معيار الحسن في عدده دون اعتبار آخر، ولو رده إلى الذوق كان أحسن وأولى، إذ لو كانت المسألة بوروده في لفظتين كان داعيا للحسن، لحكمنا بذلك على كل جناس جاء في لفظتين بالحسن وإن قبيحا، وإنما العبرة بخلوه من التكلف، ووقوعه من النظم موقعه اللائق، وحسن دلالته على المعنى المسوق له الكلام، وبتطبيق هذا على بيت أبي تمام تجد سلاسة في النطق، وانسجاما بين ألفاظ البيت، فلا تشعر بكلفة ولا مشقة فيه، وعليه فبيت الطائي لا مشكلة فيه، وأنه من المطالع الحسنه، وجناسه ليس من هذا النوع المتكلف، الذي يعاب. ولو رد الآمدي ومن تبعه المسألة للذوق، وجعلوه حكما كان أولى، وليست العبرة بتجانس لفظين أو ثلاثة، وإنما العبرة بما جاء سهلا، تأنس النفس به، ولا يمجه الطبع.

المبحث الرابع: ما استحسنه الآمدي وذمه غيره

تمهيد:

في الصفحات السابقة كنا نذكر ما استقبحه الآمدي من شواهد أبي تمام؛ سواء كان في ألفاظه ومعانيه، أم استعاراته، أو في ابتداءاته، ونناقش ذلك في ضوء ما قاله أهل العلم؛ لنصل إلى الرأي الأمثل فيها.

وهنا أتناول أمرا مختلفا عما سبق؛ وهي الشواهد التي استحسنها الآمدي واستقبحها غيره من أهل العلم، وهذه الشواهد قليلة جدا؛ حيث إن جلَّ شواهد أبي تمام، التي استحسنها الآمدي لا يختلف على حسنها أحد، إلا في القليل النادر، فمن القليل أن يستحسن صاحب الموازنة شيئا للطائي، ويحكم غيره عليه بالقبح، فأكثر الشواهد كانت على النحو الذي مضى بيانه في المباحث السابقة؛ وهي أن يستقبح الآمدي شيئا وتجد عند أهل العلم غير ذلك.

وفي الصفحات القادمة أذكر تلك الشواهد التي عابها غير الآمدي، ولكنها صادفت قبولا عند صاحب الموازنة، ثم نناقشها مناقشة موضوعية، في ضوء ما قاله البلاغيون؛ حتى نحكم عليها بما يليق بها؛ هل كان استحسان الآمدي في محله؟ أم كان الصواب عند غيره.

الشاهد الأول:

في حديث الآمدي عن استعارات أبي تمام ذكر قوله:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنَّنِي ... صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي

جعل الطائي للملام ماء على سبيل الاستعارة، وتلك الاستعارة لم تعجب كثيرا من أهل العلم؛ والسبب أنه لا توجد مناسبة بين المستعار منه والمستعار له، وهو شرط حسن الاستعارة على النحو الذي سبق بيانه في مبحث الاستعارت؛ إذ ليس من المعلوم والمشهورعندهم أن يكون للملوم ماء.

وبالبحث عند أهل العلم، وجدت طائفة منهم على ذم البيت، ولن أذكر كل أقوالهم؛ حيث إن مضمونها عند الجميع واحد.

فمن القدماء أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)؛ حيث لم يستحسن هذه الاستعارة؛ ففي حديثه عن قول أبي تمام :

وَكَيف وَلم يزل للشعر مَاء ... يرف عَلَيْهِ ريحَان الْقُلُوب

وَقَوله:

مُحَمَّد بن حميد أخلقت رممه ... أريق مَاء المعالى مذ اريق دَمه

قال:"فقد أحسن كَمَا تـرَاهُ فى اسْـتِعَارَة مَـاء الصِّـبَا وَمَـاء الْحسن وَمَـاء الْخَفْض وَمَـاء الْحَيَـاة وَمَـاء الشّـعْر وَمَـاء المعالى وَأمـا فـى اسْـتِعَارَة مَـاء المـلام حَيْثُ قَالَ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنَّنِي ... صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي

فَإِنَّمَا تحسن الِاسْتِعَارَة بِمَا يحسن فِيهِ التَّشْبِيه والتمثيل."[١]

حسنت الاستعارة في البيتين الأولين؛ لقرب المناسبه بين الطرفين، و لم تحسن في البيت الثالث محل الدراسة بسبب بعد تلك المناسبة، وإنما تحسن الاستعارة بما يحسن به التشبيه والتمثيل؛ ويعني به شدة الارتباط بين الطرفين.

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٥٦٥، الناشر: دار المعارف – القاهرة

وعلى نهجه جاء السكاكي (المتوفى: ٦٢٦هـ)؛ ففي حديثه عن حسن الاستعارة ذكر:" أن يكون الشبه بين المستعار له والمستعار منه جليا بنفسه أو معروفا سائرا بين الأقوام وإلا خرجت الاستعارة عن كونها استعارة ودخلت في باب التعمية والألغاز ....ولذلك استهجنت في قول الطائي...وذكر البيت.(١)

وجه استهجانه لها أن الشبه بين المستعار له والمستعار منه غير جلي؛ مما أدخلها في التعمية والإلغاز، ولكن أي تعمية يقصدها السكاكي، والمعنى المسوق له الكلام من السهل الوقوع عليه؟!

واستقبحها أيضا الزركشي؛ ففي حديثٍ له عن الاستعارة، ذكر أن من فوائدها إِيضَاحِ مَا لَيْسَ بِجَلِيٍّ لِيَصِيرَ جَلِيًّا، ثم تعرض لحسنها في قوله . تعالى . :﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ الإسراء: ٢٤" فقال:" وَحِكْمَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي هذا جعل مَا لَيْسَ بِمَرْئِيٍّ مَرْئِيًّا لِأَجْلِ حُسْنِ الْبَيَانِ، وَلَمَّا كَانَ الْمُرَادُ خَفْضَ جَانِبِ الْوَلَدِ لِلْوَالِدَيْنِ، بِحَيْثُ لَا يُبْقِي الْوَلَدُ مِنَ الذُّلِّ لَهُمَا وَالِاسْتِكَانَةِ مَرْكَبًا، احْتِيجَ مِنَ الِاسْتِعَارَةِ إِلَى مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْأُولَى؛ فَاسْتُعِيرَ الْجَنَاحُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي لَا تَحْصُلُ مِنْ خَفْضِ الْجَنَاحِ؛ لِأَنَّ مَنْ مَيَّلَ جَانِبَهُ إِلَى جِهَةِ السُّفْلِ أَدْنَى مَيْلٍ صَدَقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ خفض جانبه المراد خَفْضٌ يُلْصِقُ الْجَنْبَ بِالْإِبِطِ، وَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا بِخَفْضِ الْجَنَاحِ كَالطَّائِرِ، وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْمُلَامِ فَإِنَّنِي ... صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي

فَيُقَالُ: إِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ قَارُورَةً وَقَالَ: ابْعَثْ إِلَيَّ فِيهَا شَيْئًا مِنْ مَاءِ الْمُلَامِ فَأَرْسَلَ.

وَهَذَا لَا يَصِحُّ لَهُ تَعَلُّقٌ بِهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّشْبِيهَيْنِ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ جَعْلُ الْجَنَاحِ لِلذُّلِّ كَجَعْلِ الْمَاءِ لِلْمُلَامِ؛ فَإِنَّ الْجَنَاحَ لِلذُّلِّ مُنَاسِبٌ، فَإِنَّ الطَّائِرَ إِذَا وَهَى

(١) ينظر: مفتاح العلوم٣٨٨،ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م

وَتَعِبَ بَسَطَ جَنَاحَهُ وَأَلْقَى نَفْسَهُ إِلَى الْأَرْضِ. وَلِلْإِنْسَانِ أَيْضًا جَنَاحٌ؛ فَإِنَّ يَدَيْهِ جَنَاحَاهُ، وَإِذَا خَضَعَ وَاسْتَكَانَ يطأطىء مِنْ رَأْسِهِ، وَخَفَضَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، فَحَسُنَ عِنْدَ ذَلِكَ جَعْلُ الْجَنَاحِ لِلذُّلِّ، وَصَارَ شَبَهًا مُنَاسِبًا، وَأَمَّا مَاءُ الْمُلَامِ فَلَيْسَ كَذَلِكَ فِي مُنَاسَبَةِ التَّشْبِيهِ، فَلِذَلِكَ اسْتُهْجِنَ مِنْهُ."(١)

كلام الزركشي بيّن؛ فبعد أن ذكر قصة هذا الذي أنكر علي الطائي جعله للملوم ماء، فطلب أبو تمام منه أن يرسل إليه ريشة من جناح الذل، فيرى الطائي أن اللغة والخيال الذي سوغ أن يجعل للذل جناحا، هو أيضا الذي سوغ له أن يجعل للملام ماء.

وهذا عند الزركشي غير سديد؛ لوجود المناسبة بين الطريفين في الآية الكريمة، وخفائها وبعدها في بيت أبي تمام على النحو الذي بيّنه الزركشي.

وممن عابها من المحدثين الأستاذ أحمد بدوي المتوفى ١٩٦٤م؛ حيث قال:" يبدو أن بيت أبى تمام لم يجر على نسق الآية الكريمة، فليس هناك صلة ما بين الماء والملام تجيز هذه الإضافة، ولا سيما أن إيحاء الكلمات فى الجملة لا تساعد أبا تمام على إيصال تجربته إلى قارئه، فليس في سقى الماء ما يثير ألما، ولو أنه قال: لا تجر عنى غصص الملام، لاستطاع بذلك أن يصور لنا شعوره تصويرا أدقّ وأوفى، لما تثيره هاتان اللفظتان في النفس من المشقة والألم."(٢)

من خلال ما سبق تبيّن أن بعضا من أهل العلم ذموا البيت، واستهجنوا الاستعارة فيه، ولكن في الجانب الآخر وجدت من يستحسنه، ويشيد به، وعلى رأسهم جاء صنيع الآمدي؛ حيث ذكر البيت، ثم قال:"فقد عيب، وليس بعيب

(١)البرهان في علوم القرآن ٤٣٣/٣،المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه

(٢)من بلاغة القرآن١٧٠،الناشر: نهضه مصر – القاهرة،عام النشر: ٢٠٠٥

عندي؛ لأنه لما أراد أن يقول:" قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي " جعل للملام ماء؛ ليقابل ماء بماءٍ وإن لم يكن للملام ماء على الحقيقة، كما قال الله عز وجل:﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ ﴾ الشورى: ٤٠ – ٤٢ ومعلوم أن الثانية ليست بسيئة، وإنما هي جزاء السيئة؛ وكذلك﴿ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ ﴾ هود: ٣٨ ، والفعل الثاني ليس بسخريةٍ، ومثل هذا في الشعر والكلام كثير مستعمل... فإن قيل: فإن أبا تمام أبكاه الملام، والملام قد يبكي على الحقيقة؛ فتلك الدموع هي ماء الملام على الحقيقة. قيل: لو أراد أبو تمام ذلك لما قال " قد استعذبت ماء بكائي " لأنه لو بكى من الملام لكان ماء الملام هو ماء بكاء أيضاً، ولم يكن يستعفى منه." (١)

البيت ليس به عيب عند الآمدي؛ وقد علل ذلك بأن الوجه الذي سوغ للطائي أن يجعل للملوم ماء، وهو مشاكلته للماء الحقيقي في قوله:" قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي"، فقابل ماء غير حقيقي بماء حقيقي، واستشهد على ذلك بالمقابلة في الآيتين الكريمتين؛ فقد سمى القرآن السيئة الثانية بسيئة، وإنما هي جزاء السيئة، وكذلك الفعل سخرية وليس بسخرية؛ مشاكلة للفظ السيئة والسخرية. وهذه لمحة طيبة من صاحب الموازنة؛ أن وجد وجها صحيحا يمكن حمل قول أبي تمام عليه.

هذا ولم يكن الآمدي وحده الذي استحسن البيت؛ بل وافقه في ذلك كثيرون؛ منهم أسامة بن منقذ (المتوفى: ٥٨٤هـ) حيث قال:" ولقد أحسن أبو تمام حين قال:...وذكر البيت. (٢)

---

(١)الموازنة ١٧٧/١

(٢)البديع في نقد الشعر ٤٢، بتحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، الناشر: الجمهورية العربية .

وقد رد ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٧هـ) قول من عاب البيت، ثم قال:" وما بهذا التشبيه عندي من بأس، بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم، وهو قريب من وجه، بعيد من وجه. أما مناسبة قربه، فهو أن الملام هو القول الذي يعنف به الملوم لأمر جناه، وذاك مختصٌ بالسمع، فنقله أبو تمام إلى السقيا التي هي مختصة بالحلق، كأنه قال: لا تذقني الملام، ولو تهيأ له ذلك مع وزن الشعر لكان تشبيهًا حسنًا، لكنه جاء بذكر الماء، فحط من درجته شيئًا، ولما كان السمع يتجرع الملام أولًا كتجرع الحلق الماء صار كأنه شبيه به، وهو تشبيه معنى بصورة. وأما سبب بعد هذا التشبيه فهو أن الماء مستلذ، والملام مستكره، فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه. فهذا التشبيه إن بعد من وجه فقد قرب من وجه فيغفر هذا لهذا، ولذلك جعلته من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم." (١)

البيت لا بأس به عند ابن الأثير، وهو من الكلام الذي لا يُحمد ولا يُذم، قريب من وجه، بعيد من آخر، فهو من التشبيهات المتوسطة.

وقد استحسنها الدكتور عبد الله المجذوب (المتوفى: ١٤٢٦ هـ)؛ حيث ذكر البيت، ثم قال:" ونسج أبي تمام دقيق." (٢)

وعلى النحو الذي مضى اختلف أهل العلم في هذا البيت؛ ما بين ذم واستهجان، وكلٌ له وجه الذي اعتمد عليه.

وفي النهاية ما ذهب إليه الآمدي ومن تبعه؛ في استحسان البيت، هو الأولى للقبول، فالاستعارة في مضمونها قائمة على الخيال، وازدادت حسنا في البيت بأن جاءت في سياق المشاكلة، على النحو الذي بيّنه الآمدي، فهناك

(١)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١٢٢/٢

(٢)المرشد إلى فهم أشعار العرب ٧٧/٥

أشياء كثيرة سمّيت بغير اسمها؛ من أجل مشاكلتها لغيرها في السياق الذي وردت فيه، فالبيت عذب اللفظ، قريب المأخذ، لا يمله طبع، ولا يرده ذوق.

الشاهد الثاني:

في حديث الآمدي عما قاله أبو تمام والبحتري في المراثي، تعرض لقول الطائي:

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ ... فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ دَمْعُهَا عُذْرُ

البيت مطلع قصيدة يرثي فيها محمد بن حميد الطوسي، وبعده:

تُوفيتِ الآمالُ بعد محمدٍ ... فَأصْبح فِي شعل عَن السفَرِ السفْر

وَمَا كَانَ إِلَّا مالَ من قلَّ مالهُ ... وذُخراً لمن أَمْسَى وليسَ لهُ ذُخرُ

وَمَا كانَ يدرى مَنْ بَلاَ يُسْرَ كفهِ ... إِذا مَا استهلَّتْ أنهُ خُلق

غدَا غدْوَة والحمدُ نسجُ ردائهِ ... فَلم ينصرفْ إِلَّا وأكفانهُ الأجر

كأنَّ بني نَبهَان يومَ وفاتهِ ... نجومُ سَمَاء خرَّ من بَينهَا البدرُ

يُعَزَّوْنَ عَن ثاوٍ تُعَزَّى بهِ العلاَ ... ويبكِي عَلَيْهِ الْبَأْس والجود والنصرُ

وأنِّي لَهُم صَبر عَلَيْهِ وَقد مضى ... إِلَى الموتِ حَتَّى استشهَدَا هُوَ وَالصَّبْر

هذا البيت وتلك القصيدة من عيون شعر أبي تمام؛ يعلمها القاصي والداني، هي من الشعر الذي لا يخفى على أحد، بلغ من تأثر الناس بها أن علية القوم تمنوا أن لو قيلت فيهم تلك القصيدة؛ لأنها أبقت ذكر من قيلت فيه أبد الدهر، وقد روت كتب الأدب " لما أنْشد أَبُو تَمام أَبَا دلف الْعجلِيّ قصيدته البائية الَّتِي أَولهَا

على مثلهَا من أَربع وملاعب ... أُذِيلتْ مَصونْاتُ الدُّموع السواكب

استحسنها وَأَعْطَاهُ خمسين ألف دِرْهَم وَقَالَ وَالله إِنَّهَا لدوّنَ شعرك ثمَّ قَالَ وَالله مَا مثل هَذَا القَوْل فِي الْحسن إِلَّا مَا رثيت بِهِ مُحَمَّد بن حميد الطوسي فَقَالَ أَبُو تَمام وَأي ذَلِك أَرَادَ الْأَمِير قَالَ قصيدتك الرائية الَّتِي أَولهَا:

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ ... فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ دَمْعُهَا عُذْرُ

وددت وَالله أَنَّهَا لَك فيَّ فَقَالَ بل أفدي الْأَمِير بنفسي وَأَهلي وأكون الْمُقدم قبله فَقَالَ إِنَّه لم يمت من رثي بِهَذَا الشّعْر"[1]

فهذا الأمير كان يتمنى أن لو قيلت فيه تلك القصيدة الخالدة، ولا يُتمنى مثل هذا إلا إذا كان الكلام قد وصل عند الناس في الحسن والشهرة حدا لا نظير له.

وجلّ أهل العلم على استحسانها؛ ويأتي الآمدي على رأس من استحسنها؛ حيث رد قول من عابها؛ فقال:" قد عابه قوم من متقدمي الشيوخ بهذا، وقالوا: قوله «كذا» إشارة إلى مجهول غير معروف، وقالوا: كان ينبغي أن يقول كما قال البحتري:

انظر إلى العلياء كيف تضام ... ومآتم الأحساب كيف تقام

فأوضح المعنى بقوله: «ومآتم الأحساب كيف تقام»، وليس هذا العجز بمبين عن معنى صدره كما ذكروا، وإنما هو قسم منسوق على قسم آخر، له معنى غير معناه، فقوله: «انظر إلى العلياء كيف تضام» مثل قول أبي تمام:

«كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر».

وإنما نظر كل واحد منهما إلى الجيوب تشقق والستور تهتك، والأعلام تمزق، والرماح تكسر، فإن مثل هذا يفعل عند هلاك السادة من الأمراء وغيرهم، والخيل إنما تعقر عند قبورهم وأشباه هذا، فلما عاين هذان الشاعران من الأمر ما عايناه هذا: «كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر»، وقال ذاك: «انظر إلى العلياء كيف تضام»، ونظر البحتري إلى كثرة النساء، وعظم أقدارهن، وانتهاكهن، وما يفعلن بأنفسهن، فأتم البيت بأن قال: «ومآتم الأحساب

(١)معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ١/٤٠، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: عالم الكتب – بيروت.

كيف تقام»، لأن المآتم هي اجتماع النساء في الفجائع، ومساعدة بعضهن، فما على أحدهما فيما قاله مطعن. "[١]

هذه المرة التي نرى فيها الآمدي يرد قول من عاب شعرا لأبي تمام؛ وقد بيّن الآمدي الوجه الذي من أجله استقبحوا البيت؛ وهو أن قوله:"كذا" إشارة إلى شيء مجهول، لم يسبق له ذكر حتى يشير إليه، وكان الأولى بالطائي أن ينهج نهج البحتري؛ على النحو الذي أشار إليه الآمدي، في البيت السابق، وفي النهاية حكم أن البيت لا وجه للطعن فيه.

وعلى الرغم من شهرة البيت، واستحسانه لدى الكثير من أهل العلم، إلا إنه لم يخلو من قدح فيه؛ فقد عدّه المرزباني من ابتداءات أبي تمام البشعة؛ حيث ورد عنده:" وكانت ابتداءات شعره بشعة؛ منها قوله..."[٢]وذكر أبياتا منها هذ البيت محل الدراسة.

وقال في موضع آخر:" قال أحمد بن محمد الحلوانى: ذكر أحمد بن عبيد بن ناصح أنه قال لأبى تمام– وكان يجىء إلى المسجد الجامع ينشد أشعاره– فأنشد وهو يصول به ...وقلت للطائى يوما– وقد أنشدنا مرثيته محمد بن حميد:

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ ... فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ دَمْعُهَا عُذْرُ

فقلت: عجزه لا يشبه صدره؛ إنما كان ينبغى أن تذكره بمدح ورقة ثم تقول:

وليس لعين لم يفض ماؤها عذر." [٣]

(١)الموازنة ٢/ ٤٥٧

(٢)الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء٣٧٨

(٣)الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء٣٨٠

وجه الذم عنده أن الشطر الثاني للبيت ليس منسجما مع شطره الأول؛ إذ لا تشابه بينهما، وهذا من المرزباني تحامل على الرجل؛ فالترابط بين شطري البيت ظاهر لا يخفى، فالخطب جلل، والعين التي لا تبكي في هذا المقام لا عذر لها، فالعلاقة بينهما جلية جدا، تدركها من أول وهلة.

ثم ذكر سببا آخر لذمه البيت، غير عدم التناسق بين شطريه الذي سبق ذكره؛ فقال:"كان بعضهم يقول: يلزم أبا تمام أن يأتى بمحمد بن حميد مقتولا ثم يقول:

"**كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر**"

... عن عمر بن أبى قطيفة، قال: رأيت أبا تمام فى النوم، فقلت: لم ابتدأت بقولك:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر؟!

فقال لى: ترك الناس بيتا قبل هذا؛ إنما قلت: (١)

حرام لعين أن يجفّ لها شفر ... وأن تطعم التغميض ما أمتع الدهر

مفاد كلامه أن قوله:"كذا" في مطلع البيت لم يسبقها شيء، فالإشارة إذا إلى مجهول، حتى قال بعضهم : يلزم أبا تمام أن يأتى بمحمد بن حميد مقتولا، ثم يقول:"كذا..."لتصح الإشارة.

من أجل هذا ذكر تلك القصة التي لا دليل على صحتها، وهي أن هذا البيت قد سبق ببيت، وتركه الناس، وكأنها جريمة يعتذر عنها.

أقول: ما ذكره المرزباني لا أساس له، وأن الصواب في ناحية الآمدي ومن تبعه، وأن قوله:"كذا" الذي عابوا البيت من أجله؛ بحجة أنه لم يسبق شيء تصح الإشارة إليه، الرد على ذلك هيّن؛ فقد ذكر أهل العلم أن "الْإِشَارَةُ لِلتَّعْظِيمِ

(١) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ٣٧٩، أخبار أبي تمام٤٠

وَالتَّهْوِيلِ وَهُوَ فِي صَدْرِ الْقَصِيدَةِ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَا يُشَبَّهُ بِهِ فَقُطِعَ النَّظَرُ فِيهِ عَنِ التَّشْبِيهِ وَاسْتُعْمِلَ فِي لَازِمِ مَعْنَى التَّشْبِيهِ، يَعْنِي أَنَّ الشَّاعِرَ أَشَارَ إِلَى الْحَادِثِ الْعَظِيمِ وَهُوَ مَوْتُ مُحَمَّدِ بْنِ حُمَيْدٍ الطُّوسِيِّ."(١)

فالإشارة تفيد التعظيم والتهويل؛ بمعنى لو كان هناك من الخطب والشدة ما يعجز عنه الوصف فهو مثل هذا، فالإشارة هنا غاية في الدقة.

الشاهد الثالث :

في حديث الآمدي عن البكاء على الديار ذكر قول أبي تمام:

على مثلهَا من أَربُع(٢) وملاعب(٣) ... أُذِيلتْ مَصونْاتُ الدُّموع السواكب

هذا البيت مطلع قصيدة يمدح فيها أبو تمام أبا دلف، وقد بدأها بالتشبيب، وذكر المنازل والبكاء على مواطن الأحباب.

وهذه البداية لم يرض بها بعض أهل العلم؛ والسبب في ذلك أن البيت اشتمل على تقديم موهم؛ لأن تقديم " على مثلها" يوهم الدعاء باللعنة؛ حتى قالوا إن أبا تمام كان به حبسة في الكلام، فلما أنشد المصراع الأول" على مثلهَا من أَربُع وملاعب" وسكت، قاطعه رجل وقال: لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

---

(١) ينظر: حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي٢م/٢٤٩ ، التحرير والتنوير ١٦/٢،الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

(٢)الرَّبْعُ: الدَّارُ بِعَيْنِهَا حَيْثُ كَانَتْ وَجَمْعُهَا (رِبَاعٌ) وَ (رُبُوعٌ) وَ (أَرْبَاعٌ) وَ (أَرْبُعٌ)مختار الصحاح رب ع، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

(٣) مَلاعِبُ الصبيانِ وَالْجَوَارِي فِي الدَّارِ مِنْ دِيارَاتِ الْعَرَبِ حَيْثُ يَلْعَبُونَ، الواحدُ مَلْعَبٌ.لسان العرب: لعب.

وكل من عاب البيت السابق عابه من تلك الجهة؛ حيث ذمه ابن معصوم؛ ففي حديثه عن حسن الابتداء قال:" ينبغي أن يحترس الناظم مما يتأول عليه ويبادر بالجبة إليه، كما قيل لأبي تمام حين أنشد: (على مثلها من أربع وملاعب) : لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وكان في أبي تمام حبسة شديدة، فانقطع خجلا."(١)

وعلى هذا النهج سار البغدادي حيث ذكر:" لما أنشد المصراع الأول عارضه شخص فقال لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فانخزل منه وترك الإنشاد لأن تقديم الخبر في مثله يوهم الدعاء باللعنة... فقال بعض من أراد نكتة لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فولد من الكلامين كلاما ينافي غرض أبي تمام من وجهين أحدهما خروج الكلام عن التشبيب إلى الهجاء بسبب ما انضم إليه من الدعاء والثاني خروج الكلام عن أن يكون بيتا من شعر إلى أن صار قطعة من نثر"(٢)

فصنيع أبي تمام أخرج كلامه على غير مراده؛ على النحو الذي ذكره البغدادي.

ومن المحدثين جاء قول الدكتور عبدالله المجذوب؛ ففي حديثه عن مطالع المحدثين قال:" وكما كان القدماء يعتمدون في مطالع النسيب أن تكون ذوات دلالة على ما بعدها مفاتح لأقفالها كانوا أيضًا يعتمدون بها أن تروع وتقرع الأسماع يشهد بذلك ما اختاروه منها كقول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

(١)أنوار الربيع في أنواع البديع١٤

(٢)خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب٣٤٨/١

وكان أبو تمام عالمًا بهذا من مذاهبهم الذي يقرعون به الأسماع ويهيئون بذلك سبيل النفوذ إلى الأفئدة، وكان انتهاج مسلكه من مقومات بديعه، مثلًا قوله:...وذكر البيت، ثم قال:" وقد جنى عليه قوله «على مثلها من أربع وملاعب». أن أعترض عليه أحد حساده إذ اعترته تمتمة كانت مما نعتريه فقال: «لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» فأدخل عليه بذلك دهشة عظيمة." (١)

لا يخفى أن كلام الدكتور المجذوب خرج من معين ابن معصوم والبغدادي، و عنده أبو تمام قد جنى على نفسه بهذا الصنيع.

وكل من سبق استقى كلامه من كلام ابن رشيق؛ ففي حديثه عن حسن الابتداءات والنهايات قال:" وليحترس مما تناله فيه بادرة، أو يقع عليه مطعن؛ فإن أبا تمام امتدح أبا دلف بحضرة من كان يكرهه، فافتتح ينشد قصيدته المشهورة: على مثلها من أربع وملاعب وكانت فيه حبسة شديدة فقال الرجل: " لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " فدهش أبو تمام حتى تبين ذلك عليه، على أنه غير مأخوذ بما قيل، ولا هو مما يدخل عليه عيباً، ولا يلزمه ذنباً على الحقيقة، إلا أن الحوطة والتحفظ من خجلة البادرة أفضل وأهيب، والتفريط أرذل وأخذل."(٢)

ويختلف ابن رشيق عنهم في أنه التمس للطائي عذرا فيما قال؛ وأنه غير مأخوذ بما قيل، ولا يلزمه ذنباً على الحقيقة، إلا أن الحوطة والتحفظ أفضل وأهيب.

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب١٢٦/٤

(٢)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢٢١،٢٢٢

هذا وإذا كان السابقون عابوا البيت من تلك الجهة فإن الآمدي لم ينظر إليها ، ولم يعدها عيبا؛ ففي حديثه عن البكاء على الديار، ذكر البيت ثم قال:" قد أنكر " مصونات الدموع السواكب " بعضُهم وقال: كيف من السواكب ما هو مصون وإنما أراد أبو تمام أذيلت مصونات الدموع التى هى الآن سواكب، ولفظه يحتمل ما أراده"(١)

لم يبين الآمدي من الذي أثار هذا السؤال؟ أما مضمونه فهو يقول: إن الدموع مصونة، فكيف تكون سواكب؟!

فذكر الآمدي أن مصونات الدموع ذهبت، وهي الآن سواكب؛ بمعنى كانت الدموع محفوظة، وهي الآن سواكب.

ولم يكن صاحب الموازنة من دافع عن البيت وحده؛ فقد ذكر صاحب الأغاني أن أبا دلف القاسم بن عيسى أنشده أبو تمام الطائي قصيدته:

على مثلها من أربُعٍ وملاعبِ ... أُذيلتْ مصُونات الدموع السواكبِ

فلما بلغ إلى قوله

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسِها ... وزادت على ما وطَّدت من مَناقِبِ

فأنتم بذي قارٍ أمالتْ سُيوفُكم ... عُروش الذين اسْتُرْهِنوا قوسَ حاجبِ

محاسنُ من مجد متى تَقْرُنوا بها ... محاسن أقوامٍ تكن كالمعايب

فقال أبو دلف يا معشر ربيعة ما مُدحتم بمثل هذا الشعر قط فما عندكم لقائله فبادروه بمطارفهم يرمون بها إليه فقال أبو دلف قد قبلها وأعاركم لبسها وسأنوب عنكم في ثوابه تمم القصيدة يا أبا تمام فتممها فأمر له بخمسين ألف

(١)الموازنة ٤٥١/١

درهم وقال والله ما هي بإزاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا فشكره وقام ليقبل يده فحلف ألا يفعل"[١]

واستحسنه شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ) في حديثه عن حسن الابتداءات؛ حيث ذكر "يحسن أن يبتدئ فى التشبيب بمثل قول أبى تمّام:..." [٢] وذكر البيت، فقد جعله نموذجا يحتذى به في المطالع.

وعلى نهجهما سار الشيخ يوسف البديعي الدمشقي (المتوفى: ١٠٧٣هـ)؛ صاحب "الصبح المنبي عن حيثية المتنبي"؛ حيث ذكر البيت وشيئا من القصيدة وقال:" وهذا البيت من قصيدة يمدح بها أبا دلف العجلي، وهي من أمهات قصائده."[٣]

وفي النهاية أقول: إننا بصدد قولين مختلفين في هذا البيت؛ فقد استحسنه الآمدي ومن تبعه، وذمه غيرهم، وأرى أن الصواب في جانب من استحسنه؛ فقولهم إن أبا تمام فيه حبسة، ومطلع البيت يوهم خلاف مراده، لا ينهض حجة للذم؛ حيث إننا نحكم على قوله، ولا صلة بحبسة الرجل، فلو كتب الشعر أخرص أوأعمى ما ضرنا ذلك في شيء، والقضية تعود للذوق والاستعمال، ولا تصل بذوقك لهذا المعنى الذي ذكره من عابه، إلا إذا كنت متعمدا ذمه.

---

(١)الأغاني ٢٢٢/١٦

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ١٣٤/٧، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

(٣)الصبح المنبي عن حيثية المتنبي (مطبوع بهامش شرح العكبري)٢٩٢/١، الناشر: المطبعة العامرة الشرفية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٨ هـ

الخاتمة

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات، وبالصلاة والسلام على أفصح خلقه تتنزل البركات...وبعد.

فإني أحمد الله . تعالى . أن وفق وأعان على إتمام هذا العمل؛ الذي كان مهتما بشواهد لأبي تمام وعابها الآمدي، ووجدت من أهل العلم من ينتصر لها، فكانت المسألة شائكة؛ أن تجد في البيت قولين مختلفين؛ من يمدحه ويجعله لا نظير له، ومن يذمه ويراه من المفاسد التي يجب أن تنزه سمعك عنها، فكان الأمر من الصعوبة بمكان؛ كيف تنتصر لقول دون قول؟، وأن يكون الدليل والذوق قائدا لهذا، ولم يكن ذلك بالأمر الهين؛ حيث إن كلا من الفرقين على قدم راسخة في النقد، فكان الأمر بحاجة إلى مزيد من الدقة حتى نصل في النهاية إلى القول الأولى بالصواب في ضوء قواعد العلم.

وقد وافق الباحثُ الآمدي في كثير مما ذهب إليه، وخالفه في أمور أخرى، جاءت بعد معايشة كلام العلماء ومحاولة الوصول إلى ما يقتضيه السياق، وليس معنى هذا أنني أقول بخطأ أحد من السابقين، وإنما لكل وجهة، وللمجتهد أجر أخطأ أو أصاب.

ولن أذكر هنا المسائل التي وافقت فيها الآمدي أوالتي خالفته فيها؛ حيث إنها مذكورة في موضعها من البحث، فلا حاجة لإعادتها هنا، وإنما أتناول بعض الأمور في أسلوب الآمدي، والتي ظهرت من خلال تلك الدراسة، وفيما يلي أشير إلى أهمها:

أولا: الأساس الذي اعتمد عليه الآمدي في أخذه على أبي تمام، هو مخالفته لما عليه القدماء؛ وهذا الأمر لا مشكلة فيه، وإنما المشكلة في الطريقة التي يجب على الشاعر أن يلتزم بها، حيث كان الآمدي شديدا في هذا الأمر، حتى وقع أحيانا فيما لا يقوله أحد.

والشواهد على هذا كثيرة؛ مثلا عاب أبا تمام عندما جعل بكاءه يزيده حرقة، فيرى الآمدي أن هذا ليس من طبعهم، وأن الصواب أن يخفف البكاء عن صاحبه، فهل مثل هذا مما نحجر فيه على الشاعر؟، فالمشاعر والأحاسيس لا سبيل للتقليد فيها،

ولا أدري أي مزية للكلام في اتباع العرب في مثل هذا؟! أهو من القواعد التي يُعاب الإنسان بتركها، فإذا كان إحساس المتكلم قد أنطقه بهذا؟ نرده ونقول اجعل بكاءك يطفيء نار الفراق، فما ذنبه إذا كان بكاؤه يزيده حرارة وشوقا؟!

وهذا الأمر قد جلب على الآمدي كلاما كثيرا، وقد ناقش المسألة الدكتور إحسان عباس فقال:" ويأوي الآمدي في نقده إلى ركن شديد، يجعله أساساً لنظرته النقدية وهو الرجوع في كل أمر يختلف فيه المتذوقون والنقاد إلى ما تعارفته العرب وأقرته وأُثر عنها، فكما ان على الشاعر ان يلتزم عمود الشعر، فعلى الناقد ان يلتزم عمود الذوق ...ولسنا نريد أن نقول إن هذا القانون يقتل الإبداع ويهمل اعتبار الطبيعة الإنسانية التي تؤمن بتغير الأذواق وتبدلها، فذلك تحكيم لقواعدنا فيما كان يظنه النقاد القدماء منهجاً صائباً في عصرهم. ولكنا نقول إن هذا القانون متعسف لأنه يفترض اللجوء إلى قاعدة لا يمكن تحديدها. فمن هو الذي يستطيع أن يزعم لنفسه وللناس أنه قد أحاط بما يسمى " طريقة العرب " في الاستعمالات اللغوية والتصويرية. ولماذا يعمد الآمدي نفسه كلما رأى أثراً قديماً مشبهاً بطريقة أبي تمام إلى الاعتذار عنه وعده من النادر أو الشاذ؟ أليس هذا النادر صادراً عن عربي، تقبله ذوقه وأقره خياله – وهو خيال عربي – ولم نسمع أنه طواه استهجاناً أو قابله الناس حينئذ بالاستغراب."[١]

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب١٦٧

ثانيا: كم كان الآمدي قاسيا على أبي تمام دون داع لذلك؛ من ذلك قوله:

لما استحر الوداع المحض وانصرمت ... أواخر الصبر إلا كاظماً وجما

رأيت أحسن مرئىّ وأقبحه ...مستجمعين لى: التّوديع والعنما

قال:" وأبو تمام استحسن أصبعها واستقبح إشارتها، ولعمري إن منظر الفراق منظر قبيح، ولكن إشارة المحبوبة بالوداع لا يستقبحها إلا أجهل الناس بالحب، وأقلهم معرفة بالغزل، وأغلظهم طبعاً، وأبعدهم فهماً." وغير ذلك من الألفاظ القاسية التي لا تليق، والتي وردت في موضعها من البحث؛ مما يغني عن ذكرها هنا.

ثالثا: ومع شدة الآمدي على أبي تمام، إلا أنك أحيانا تجد منه مدحا له، كأنه لا يرى من الشعراء غيره، حتى رأيناه يستحسن له أبياتا، عابها كثير من أهل العلم.

رابعا: هناك تناقض في بعض أحكامه؛ فمرة يعيب على الطائي أنه يجنح في معانيه بعيدا عن عن البدويين، ويجعل ذلك عيبا، ومرة أخرى يعيب عليه التزامه بما تكلم به البدويون؛ من ذلك حديثه في قوله:

شَهِدْتُ لقَدْ أَقَوَتْ مَغَانيكُمُ بَعْدِي ... وَمَحَّتْ كما مَحَّتْ وشائِعُ مِن بُرْدِ

فإن جنح به الخيال، وجاء بجديد ذمه؛ لأنه خالف السابقين، وإن سايرهم واقتدى بهم، غُفِرَ لهم ذلتهم لبدويتهم، وردت على الطائي لكونه حضريا، فهذا من التناقض في الحكم.

خامسا: هناك مسألة مهمة في المنهج الذي عاب به استعارات أبي تمام؛ يتمثل في أن الطائي خالف السابقين في معانيهم؛ فلم يرد عندهم مثل هذه المعاني التي جاء بها أبو تمام، فهل نحجر على الخيال ونلزم المتكلم أن يقتفى خيال السابقين، ولا يحيد عنهم؟! والأخيلة والمعاني مما لا حد لها، إن الاستعارة قائمة على الخيال، وليس من الإنصاف أن يَلْزَم المتكلم خيالَ من سبقه، ولا يغادره، فهي من الأمور التي يُغلب عليها الإنسان.

هذا ويظل كتاب الموازنة بحاجة إلى كثير من الدراسات؛ حيث إنه اشتمل على كثير من الأحكام النقدية، التي لا غنى عنها في الدرس البلاغي، رحم الله صاحبه، وغفر لأبي تمام والبحتري؛ فشعرهما كان سببا في إخراج هذه الكنوز.

أسال الله أن يعفو ويصفح، وحسبي أني اجتهدت، والله المستعان، وعليه التكلان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١. أسرار البلاغة، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٢. إعجاز القرآن للباقلاني،المحقق: السيد أحمد صقر،الناشر: دار المعارف – مصر الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م.

٣ـ أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد،المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، الطبعة: الأولى، ١٣٧٣ هـ – ١٩٥٤ م.

٤ـ الأدب وفنونه – دراسة ونقد، المؤلف: عز الدين إسماعيل (المتوفى: ١٤٢٨هـ) الناشر: دار الفكر العربي.

٥ـ الأسلوب،المؤلف: أحمد الشايب،الناشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثانية عشرة .٢٠٠٣

٦. الإعجاز والإيجاز،الناشر: مكتبة القرآن – القاهرة.

٧. الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٨ـ الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – مايو ٢٠٠٢م.

٩ـ الأغاني، الناشر : دار الفكر – بيروت،الطبعة الثانية، تحقيق : سمير جابر

١٠ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، الناشر: مكتبة الآداب،الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١١. البرهان في علوم القرآن، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

١٢ـ البيان والتبيين، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ، عام النشر: ١٤٢٣هـ.

تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
١٣ـ تاريخ الأدب العربي، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٦ – ١٩٩٥ م
١٤ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب، الطبعة: الرابعة، ١٩٨٣،الناشر: دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: ١٣٩١هـ – ١٩٧١م
١٥ـ تاريخ بغداد، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢ م
١٦ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
١٧ـ تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م. التحرير والتنوير ، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
١٨. التذكرة الحمدونية، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ
١٩. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الناشر: دار المعارف – القاهرة
٢٠. جمهرة أشعار العرب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢١. جمهرة الأمثال، الناشر: دار الفكر – بيروت.
٢٢. جمهرة اللغة، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.
٢٣ـ حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، دار النشر: دار صادر – بيروت.
٢٤ـ خزانة الأدب وغاية الأرب، المحقق: عصام شقيو ، الناشر: دار ومكتبة

الهلال–بيروت، دار البحار–بيروت ، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م.
٢٥ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، الناشر: دار صادر – بيروت
٢٦. الدر الفريد وبيت القصيد، المحقق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م.
٢٧. زهر الآداب وثمر الألباب، الناشر: دار الجيل، بيروت.
٢٨ـ سر الفصاحة ، الناشر: دار الكتب العلمية ، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م.
٢٩ـ شرحا أبي العلاء والخطيب التبريزي على ديوان أبي تمام دراسة نحوية صرفية المؤلف: إيهاب عبد الحميد عبد الصادق سلامة، الناشر: رسالة ماجستير – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة، عام النشر: ٢٠١٢ م
٣٠. شرح ديوان الحماسة للتبريزي، الناشر: دار القلم – بيروت.
٣١ـ شرح مقامات الحريري، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ٢٠٠٦ م – ١٤٢٧ هـ
٣٢. الشعر والشعراء، الناشر: دار الحديث، القاهرة، عام النشر: ١٤٢٣ هـ
٣٣. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٤ـ الصناعتين ، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت ، عام النشر: ١٤١٩ هـ.
٣٥. طبقات الشعراء، المحقق: عبد الستار أحمد فراج، الناشر: دار المعارف – القاهرة الطبعة: الثالثة
٣٦. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ .
٣٧ـ عيار الشعر، المحقق: عبد العزيز بن ناصر المانع ، الناشر: مكتبة

الخانجي – القاهرة.
٣٨. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.
٣٩ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الثالثة عشرة
٤٠ـ لسان العرب، الناشر: دار صادر – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.
٤١. مجاني الأدب في حدائق العرب، الناشر: مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت عام النشر: ١٩١٣ م
٤٢. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء،الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ
٤٣ـ مختار الصحاح، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا ، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م. الناشر: عالم الكتب – بيروت.
٤٤. معجم المؤلفين، الناشر: مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٤٥ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد
٤٦ـ مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م
٤٧. مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٤٨ـ من بلاغة القرآن، المؤلف: أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (المتوفى:

١٣٨٤هـ)، الناشر: نهضه مصر – القاهرة، عام النشر: ٢٠٠٥
٤٩ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ٣٠، ٣١، تحقيق : محمد الحبيب ابن الخواجه ، الناشر : دار الكتب الشرقية تونس ، عام النشر ١٩٦٦م.
٥٠ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة.
٥١. المرشد إلى فهم أشعار العرب، المؤلف: عبد الله بن الطيب بن عبد الله بن الطيب بن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب (المتوفى: ١٤٢٦ هـ)، الناشر: دار الآثار الإسلامية- وزارة الإعلام الصفاة – الكويت، الطبعة:الثانية سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م
٥٢ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، المحقق: فؤاد علي منصور ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
٥٣. المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السادسة.
٥٤ـ المنصف للسارق والمسروق منه ، المحقق: عمر خليفة بن ادريس ، الناشر: جامعة قات يونس، بنغازي ، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م.
٥٥. الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق : السيد أحمد صقر ، نشر / دار المعارف – الطبعة الرابعة ، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م. المحقق: إبراهيم السامرائي، الناشر: مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
٥٦ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى١٤٢٣ هـ.
٥٧ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت.

٥٨. الوافي بالوفيات، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
٥٩. الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي ، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٢٦١٧
مقدمة	٢٦١٩
تمهيد	٢٦٢١
المطلب الأول: التعريف بأبي تمام.	٢٦٢١
المطلب الثاني: التعريف بالآمدي.	٢٦٢٤
المطلب الثالث: الدراسات السابقة.	٢٦٢٦
المبحث الأول: شواهد الخطأ في اللفظ والمعنى.	٢٦٢٧
تمهيد.	٢٦٢٧
الشاهد الأول.	٢٦٣١
الشاهد الثاني.	٢٦٣٧
الشاهد الثالث.	٢٦٤٢
الشاهد الرابع.	٢٦٤٦
الشاهد الخامس.	٢٦٥١
الشاهد السادس.	٢٦٥٥
الشاهد السابع.	٢٦٦٠
الشاهد الثامن.	٢٦٦٣
المبحث الثاني: الاستعارات القبيحة.	٢٦٦٩
تمهيد.	٢٦٦٩
الشاهد الأول.	٢٦٧١
الشاهد الثاني.	٢٦٧٧
الشاهد الثالث.	٢٦٨١

الشاهد الرابع.	٢٦٨٤
المبحث الثالث: الابتداءات القبيحة.	٢٦٨٨
تمهيد.	٢٦٨٨
الشاهد الأول.	٢٦٩٠
الشاهد الثاني.	٢٦٩٣
الشاهد الثالث.	٢٦٩٦
المبحث الرابع: ما استحسنه الآمدي وذمه غيره.	٢٧٠٤
تمهيد.	٢٧٠٤
الشاهد الأول.	٢٧٠٥
الشاهد الثاني.	٢٧١٠
الشاهد الثالث.	٢٧١٤
الخاتمة.	٢٧١٩
ثبت المصادر والمراجع.	٢٧٢٣
فهرس الموضوعات	٢٧٢٩